

أنماط الخطاب
في حوارات النبي ﷺ مع عائشة رضي الله عنها
(الاستفهام أنموذجا)

د/ إبراهيم بن عبد الله الغانم السماعيل
الأستاذ المشارك
كلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
١٤٣٧هـ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين القائل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)، والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين القائل: "إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفِيقَ، وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْغُنْفِ"^(٢)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فإن من نعم الله تعالى العظيمة البحث في حياة خير الخلق محمد ﷺ والعيش في كنف سيرته العطرة، وتفقيؤ ظلها الوارفة، والتنقل في حدائقها الغناء.

وهذا ما حداني إلى اختيار موضوع بحثي في السيرة النبوية العطرة، وزاد شرفي شرفاً أن كان الموضوع النبوي الكريم وثيق الصلة بأمتنا أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها وعن أبيها، وعن سائر الصحب الكرام.

وقد حرصت في هذا البحث المعنون بـ (أنماط الخطاب في حوارات النبي ﷺ مع عائشة رضي الله عنها الاستفهام أمودجا) على بيان المنهج النبوي في الحوار، ذلك أن النبي ﷺ هو المعلم المرئي الذي عاش مع الناس ليله ونهاره، وخالطهم وحاوهم مسلمهم وكافرهم، كما اشتمل البحث على مدى تأثير الصحابة الكرام الرعيل الأول رضي الله عنهم بهذه التربية الفذة؛ رجاء الإفادة منها في واقعنا اليوم؛ حرصاً على النهوض بمجتمعنا، وبغية الرقي بمحاضننا التربوية، وجامعاتنا الأكاديمية، ومؤسساتنا التعليمية؛ لتؤدي مهمتها على الوجه المطلوب، متبعا في ذلك المنهج الوصفي التحليلي.

وقد جاء البحث، موزعاً على مقدمة، ومبحثين، وخاتمة، فثبتت المصادر والمراجع، وكان المبحث الأول عن الحوار، وأنماط الخطاب وأهميتهما في مراعاة حال المتلقي، مشتملا على حوارات النبي ﷺ بوجه عام، مع المسلم وغيره، مع الزوج والولد، والعاصي والمطيع، والراضي والغضبان. وجاء المبحث الثاني في الحديث عن الحوارات الدائرة بين النبي ﷺ وأمتنا عائشة رضي الله عنها فيما بدت فيها ظاهرة الاستفهام تحديداً، ثم جاءت خاتمة هذا البحث، فثبتت المصادر، فالفهارس لمحتويات البحث.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، نافعاً لي في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الناس لرب العالمين. وأن يجعل ثوابه لي ولوالديّ ووالديهم وللمسلمين، شاكرًا كل من أعان على إتمام هذا العمل، وخروجه بهذا الوجه.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

د/ إبراهيم بن عبد الله الغانم السماعيل

(١) الإسراء: ١٧ / ٩

(٢) الأدب المفرد ص: ١٦٦

الأستاذ المشارك
كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
السعودية - الرياض

المبحث الأول

أنماط الخطاب، والحوار، و نماذج من حوارات النبي ﷺ عامة

الخطاب : (١)

نقرأ في مادة (خطب) في لسان العرب : "... الخطب : الأمر الذي تقع فيه المخاطبة والشأن والحال... والخطابة والمخاطبة : مراجعة الكلام وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا، وهما يتخاطبان... الخطبة اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب... الكلام المنثور المسجع ونحوه ... والخطبة مثل الرسالة التي لها أول وآخر ... والمخاطبة مفاعلة من الخطاب والمشاورة" (٢).

يعد ابن منظور الخطاب مرادفا للكلام، ويجعل له بداية ونهاية دون أن يغفل خاصية التفاعل فيه. ومن ثم فالخطاب في لسان العرب كلام عادي أو مزخرف، له أول وله آخر، وهو يتم بين متخاطبين أو أكثر يدخلان يدخلون في تفاعل بينهما بينهم.

ولا يضيف القاموس المحيط جديدا في هذا الصدد؛ حيث يعدّ هو أيضًا الخطاب بمثابة الكلام (٣). ويورد صاحب معجم مقاييس اللغة ملاحظة مهمة تؤكد ما جاء في لسان العرب، حيث يقول في مادة (خطب): "الحاء والطاء والباء أصلان : أحدهما الكلام بين اثنين" (٤)؛ أي أن الخطاب كلام يتبادل بين متخاطبين. ومن ثم فهو تفاعل بينهما.

(١) ينظر: حد الخطاب بين النسقية والوظيفية نبيل موميد

(٢) لسان العرب، مادة (خطب) ١ / ٣٦٠

(٣) القاموس المحيط، مادة (خ ط ب) ٨٠

(٤) مقاييس اللغة مادة (خطب) ٢ / ١٩٨

وبالرغم من كون كشاف اصطلاحات الفنون معجما اصطلاحيا متعدد الاهتمامات فقد عدّ الخطاب بحسب أصل اللغة : "توجيه الكلام نحو الغير للإفهام" (١)، ثم تطورت الكلمة لتدل على "الكلام الموجه نحو الغير للإفهام" (٢) ، إنه يميز في الخطاب بين فعل توجيه الكلام وبين الكلام ذاته؛ أي بين لحظة إنتاج الذات للكلام الموجه للآخر وبين حدث الكلام، مع التركيز في المعنيين معا على ضرورة وجود طرف آخر يحتاج إلى الفهم. ومنه فدور الخطاب هو الإفهام، وبدون وجود شريكين-أو أكثر- لهما الرغبة في التواصل فلا وجود للخطاب.

أما المعجم الوسيط فيشير إلى ما أشارت إليه المعاجم السابقة، لاسيما لسان العرب والقاموس المحيط. وبالنظر إلى اشتغال هذا المعجم على بعض الإشارات الحديثة التي لم ترد في المعاجم السابقة، نكتفي بإيرادها بدون تكرار ما سبق استخلاصه. وعليه فالخطاب "الكلام ... والخطاب المفتوح خطاب يوجه إلى بعض أولي الأمر علانية ... والخطبة الكلام المنثور يخاطب به متكلم فصيح جمعا من الناس لإقناعهم ... والخطيب المتحدث عن القوم" (٣) إن هذا القاموس يضيف ثلاثة أشياء أساسية جديدة : فالخطاب موجه إلى أشخاص محددين، كما أنه يرمي إلى الإقناع، وقد يكون كلام الشخص المتحدث نيابة عن أشخاص آخرين.

وحاصل الأمر أن كلمة "خطاب" في المعاجم العربية تحمل دلالات متعددة، فالخطاب قد يكون الكلام أو فعل توجيه الكلام، وهو محدد في الحيز الزمني بنقطة بداية وبنقطة انتهاء، مع اشتراط وجود شخصين أو أكثر يتفاعلا أو يتفاعلا فيما بينهما أو فيما بينهم بهدف تحقيق الإفهام أو الإقناع أو هما معا (٤).

ويمكن - اصطلاحًا - وصف الخطاب بأنه طريقة الجمل لتشكيل نظام في نسق محدد، ومن ثم تشكيل نص أو مجموعة نصوص ليصاغ في النهاية خطابا، أو هو -أي الخطاب- مجموعة دوال لفظية تنتجها علامات (٥).

أنماط الخطاب :

(١) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ١/ ٧٤٩

(٢) السابق

(٣) المعجم الوسيط مادة (خطب) ١/ ٢٤٣

(٤) ينظر: حد الخطاب بين النسقية والوظيفية نبيل موميد

(٥) ينظر: الخطاب بين المعنى اللغوي والمفهوم الاصطلاحي، علي حسين يوسف (نسخة الكترونية)

تعدد أنماط الخطاب، وتأتي في صور عديدة، ويمكننا تصنيف الخطاب من حيث الغرض التواصلية

المستهدف إلى أربعة أنماط، هي:

١ - الخطاب القصصي :

وهو ما يروي حدثاً متكاملًا أو مجموعة أحداث، تحدث بواسطة شخصية أو عدة شخصيات في إطار زمني ومكاني.

٢ - الخطاب التعبيري (الذاتي) :

وهو الذي يهدف إلى نقل صورة العالم الخارجي أو الداخلي من خلال اللغة الإيحائية متمثلة بالألفاظ والعبارات والتشابه والاستعارات التي تسهم في عملية إدراك هذه الصورة بالحواس والخيال، وهو مما يهيمن عليه المنظور الشخص (١)

٣ - الخطاب الإقناعي (الحجاجي) :

وهو الذي يقدم الحجج التي تسمح بأن يعلو فكر على فكر، أو رأي على رأي ويهدف إلى حث المتلقي لاتخاذ موقف معين، أو يهدف إلى تجنيد مؤيدين لفكرة معينة أو موقف معين.

٤ - الخطاب العرضي (التقري) :

وهو ما يهدف إلى عرض شخصيات، حقائق وأفكار من خلال تقديم معلومات عنها بشكل حيادي وبلغة تحديدية خالية من الانزياح. (أحادية الدلالة).

ومن البين أن الحوارات داخلية في الأنماط سابقة الذكر، لاشتمال الحوارات غالبًا على اللغة التقريرية، واعتمادها على الجانب الحجاجي، وقيامها على النمط التعبيري الذاتي، مع عدم إغفال الجانب القصصي في الحوارات إذا استدعاها المقام.

تعريف الحوار لغة:

(١) ينظر: معجم السرديات، محمد القاضي وآخرون (نظ سردية) ٤٦٦.

تدور معاني الحوار في اللغة حول: الرجوع، والجواب (١).

وعليه فالحوار هو تراجع الكلام والتجاوب فيه، وقد ورد في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

الأول في قصة أصحاب الجنة: {وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا} (٢).

والثاني في القصة نفسها: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا} (٣).

والثالث في سورة المجادلة: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا} (٤).

ويفهم من هذه المواضع الثلاثة: أن الحوار مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين (٥).

أما إطلاقه في السنة فقد جاء في عدة أحاديث، منها قوله ﷺ: " وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكَفْرِ، أَوْ قَالَ: عَدُوُّ اللَّهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ عَلَيْهِ " (٦).

(١) ينظر مثلا: مقاييس اللغة، مادة (ح و ر) (١١٧/٢)، و لسان العرب مادة (ح و ر) (٢١٧/٤)، و القاموس المحيط، مادة (ح و ر)

(٣٨٠)

(٢) سورة الكهف، الآية ٣٤.

(٣) سورة الكهف، الآية ٣٧.

(٤) سورة المجادلة، الآية ١.

(٥) ينظر: في أصول الحوار، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ص: ١٥.

(٦) صحيح مسلم ١/٧٩، و السنة لأبي بكر بن الخلال ٥/٢١

قال النووي: حار عليه وهو معي رجعت عليه، أي رجع الآخر عليه فباء وحار ورجع بمعنى واحد(١).

ومنها قوله ﷺ: " اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْحَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ اصْحَبْنَا فِي سَفَرِنَا، وَاحْلُقْنَا فِي أَهْلِنَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعَثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَمِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ، وَدَعْوَةِ الْمَظْلُومِ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ "، قَالَ: وَسُئِلَ عَاصِمٌ عَنِ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ؟ قَالَ: " حَارَ بَعْدَ مَا كَانَ " (٢).

تعريف الحوار اصطلاحاً:

هو: مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين، وعرفه بعضهم بأنه نوع في الحديث بين شخصين، أو فريقين يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة، فلا يستأثر أحدهما دون الآخر ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب، وهو ضرب من الأدب الرفيع وأسلوب من أساليبه(٣).

وعليه فيمكننا أن نحدد مفهوم الحوار بأنه: أسلوب يجري بين طرفين، يسوق كل منهما من الحديث ما يراه ويقتنع به، ويراجع الطرف الآخر في منطقته وفكره قاصداً بيان الحقائق وتقريرها من وجهة نظره.

ذلك أنّ كل واحد من المشتركين في الحوار لا يقتصر على عرض الأفكار القديمة التي يؤمن بها، وإنما يقوم بتوليد الأفكار في ذهنه، ويعمد إلى توضيح المعاني المتولدة من خلال عرض الفكرة وتأطيرها وتقديمها بأسلوب علمي مقنع للطرف الآخر، بحيث يظل العقل واعياً طوال مدة المحاوره ليستطيع إصدار الحكم عليها، سلباً أو إيجاباً(٤).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم، الإمام النووي ٢ / ٥٠.

(٢) مسند أحمد ٣٤ / ٣٧٦.

(٣) ينظر: الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، يحيى زمزمي، ص: ٢٢.

(٤) أشار د. أحمد المزيد إلى أربعين ضابطاً للحوار، ينظر للاستزادة: الدليل العملي للحوار البناء ٣٣.

نماذج من حوارات النبي ﷺ عامة : (١)

من المستحسن أن أشير قبل الدخول في صلب حوارات النبي صلى الله عليه وسلم إلى شيء من وصف بلاغته صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك ما ذكره الجاحظ وأجاد حين قال: " وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد: { وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ } (٢) فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التعقيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الأفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته.

لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل بيّد الخطب الطوال بالكلام القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلافة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطن ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر. ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقفاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً... قال محمد بن سلام: قال يونس بن حبيب: ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " (٣).

وعلى هذا فإن بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم فيض إلهي، ولذا فإن نسق البلاغة النبوية يمتاز " في جملته بأنه شيء لا تجده في كلام الفصحاء، فهو معدود في ضروب الفصاحة ومتعلقاتها، وهو أمر إلهي أمر الله تعالى به نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم من أجل أن يبلغ كلامه عز وجل للناس، وفصله عن كلام البشر،

(١) عنوانات هذا المطلب مقتبسة من الحوار في السنة وأثره في تكوين المجتمع د. تيسير محبوب الفتياي

(٢) ص: ٨٦

(٣) البيان والتبيين ١٤ / ٢

وأرشده إلى القول البالغ ليرد به على المعاندين والجاحدين، فقال عز وجل: ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعِظُهُمْ وَقُلْ هُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغٌ ﴾ (١)، وبهذا تكون البلاغة أمراً إلهياً مرتبطاً بالوحي المنزل على النبي المرسل محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن تكون ظاهرة أسلوبية" (٢).

ويمكن الوقوف على ألوان من حوارات النبي صلى الله عليه وسلم، منها:

١- حوار الرسول ﷺ مع الملائكة عليهم السلام :

تعددت الأحاديث الواردة في حوار النبي ﷺ مع الملائكة الكرام عليهم الصلاة والسلام، سأذكر واحدا منها هنا ، ومن خلاله سيتضح الحوار الهادئ الطويل بين أكرم خلق الله تعالى محمد بن عبد الله ﷺ وبين ملكين كريمين من ملائكة الله تعالى؛ جبرائيل، وميكائيل عليهم جميعا السلام، وذلك فيما جاء عن سَمْرَةَ بِنِ جُنْدَبٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟" قَالَ فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَّهَا فَيَقُولُ مَا شَاءَ اللَّهُ فَسَأَلْنَا يَوْمًا فَقَالَ: "هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟" قُلْنَا: لَا. قَالَ: " لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدِي فَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ وَرَجُلٌ قَائِمٌ بِيَدِهِ كَلْبٌ مِنْ حَدِيدٍ إِنَّهُ يُدْخِلُ ذَلِكَ الْكَلْبُ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الْآخَرَ مِثْلَ ذَلِكَ وَيَلْتَمِسُ شِدْقَهُ هَذَا فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَ: انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفَهْرٍ أَوْ صَخْرَةٍ فَيَشْدُخُ بِهِ رَأْسَهُ فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهَدَهَ الْحُجْرُ فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ فَلَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَمِسَ رَأْسَهُ وَعَادَ رَأْسَهُ كَمَا هُوَ فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقَبٍ مِثْلِ التَّنُورِ أَعْلَاهُ ضَبِيقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا فَإِذَا حَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ. فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهْرِ، وَعَلَى سَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهْرِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجْرٍ فِي فِيهِ فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ، فَجَعَلَ كُلُّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِي فِيهِ بِحَجْرٍ فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ. فَقُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالَ: انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ وَفِي أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصَبِيَانٌ وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا فَصَعِدَا بِي فِي الشَّجَرَةِ وَأَدْخَلَانِي دَارًا

(١) النساء: ٦٣

(٢) النسق البلاغي للكلم النبوي، د. عبد الهادي دحاني، ندوة الدراسات البلاغية الواقع والمأمول ١٦٦٧

لَمْ أَرُ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا، فِيهَا رِجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ وَنِسَاءٌ وَصِبْيَانٌ، ثُمَّ أَخْرَجَانِي مِنْهَا فَصَعِدَا بِي الشَّجَرَةَ فَأَدَخَلَانِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ، فِيهَا شُيُوخٌ وَشَبَابٌ. قُلْتُ: طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ، فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُمْ. قَالَا: نَعَمْ؛ أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ؛ فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالْكَذْبَةِ فَتُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الْآفَاقَ، فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَدِّحُ رَأْسَهُ، فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي الثَّقَبِ، فَهُمْ الرُّنَاةُ. وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهْرِ آكِلُو الرِّبَا. وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجَرَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالصَّبِيَّانُ حَوْلَهُ فَأَوْلَادُ النَّاسِ. وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكُ حَازِنُ النَّارِ. وَالدَّارُ الْأُولَى الَّتِي دَخَلْتَ دَارَ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ. وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ. وَأَنَا جَبْرِيلُ وَهَذَا مِيكَائِيلُ. فَارْفَعْ رَأْسَكَ؛ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالَا: ذَاكَ مَنْزِلُكَ. قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلَ مَنْزِلِي. قَالَا: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمْرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَوْ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ (١).

٢- حوار الرسول ﷺ مع الصحابة رضوان الله عليهم :

كان الرسول ﷺ يتخذ من الحوار أداة تعليمية يتخذها ليحرك أذهان صحابته الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، في الموضوع الذي يريد أن يتحدث فيه، حتى إذا انتهى أحدهم إلى نتيجة بسبب هذه الإثارة الذهنية، تطلع إلى الرسول المرئي ﷺ يصغي إلى حديثه الشريف، وينظر هل وفق إلى السداد أم لا؟

ومن ذلك أن يورد الرسول ﷺ سؤالاً فيه تشويق لينشئ حواراً هادفاً، ومنه هذا الحوار المشوق الإيماني، فيما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى الْمَقْبَرَةَ فَقَالَ: " السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا " قَالُوا: أَوْ لَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانِي الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ " قَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ حَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلُونَ بَيْنَ ظَهْرِي حَيْلٍ دُهُمٍ بَعْضُهُمْ أَلَا يَعْرِفُ حَيْلَهُ؟ " قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: " فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ ، أَلَا لِيَدَادَنَ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُدَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ ، أَنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ ، فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ ، فَأَقُولُ: " سُخْفًا سُخْفًا " (٢).

(١) صحيح البخاري ٥ / ١٨٣ ، و مسند أحمد ٣٣ / ٢٨٤ ، و السنن الكبرى للنسائي ٧ / ١٢٠

(٢) صحيح مسلم ١ / ٢١٨ ، و السنن الكبرى للبيهقي ٤ / ١٣١ ، و صحيح ابن خزيمة ١ / ٦

٣- حوار الرسول ﷺ مع المشركين :

حاور رسول الله ﷺ المشركين ودعاهم إلى التوحيد، وفتح صدره ﷺ أمام مناقشتهم، فمنهم من آمن، ومنهم من صدّ عنه.

فمن الحوارات التي انتهت بإيمان المحاور حديث ضمام بن ثعلبة، الذي جاء عن أنس بن مالك قال: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ فَأَنَاحَهُ فِي الْمَسْجِدِ، ثُمَّ عَقَلَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ وَالنَّبِيُّ ﷺ مُتَكِيٌّ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ. فَقُلْنَا: هَذَا الرَّجُلُ الْأَبْيَضُ الْمُتَكِيُّ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: يَا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ! فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: " قَدْ أَجَبْتُكَ " فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنِّي سَأَلْتُكَ فَمُشِدِّدٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ! فَلَا تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ. فَقَالَ ﷺ: " سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ " فَقَالَ: أَسَأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ اللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ؟ فَقَالَ ﷺ: "اللَّهُمَّ نَعَمْ" قَالَ: أُنشِدُكَ بِاللَّهِ اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّي الصَّلَاةَ الْحُمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ؟ قَالَ ﷺ: "اللَّهُمَّ نَعَمْ" قَالَ: أُنشِدُكَ بِاللَّهِ اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ؟ قَالَ ﷺ: "اللَّهُمَّ نَعَمْ" قَالَ: أُنشِدُكَ بِاللَّهِ اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَعْيَانِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَيَّ فُقَرَاتِنَا؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "اللَّهُمَّ نَعَمْ" فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولٌ مِنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرِ (١).

يتبين من خلال هذا الحوار الأثر الكبير له، والنتيجة العظيمة التي خرجت بإسلام ضمام رضي الله عنه وأرضاه.

كما يتضح من نمط الخطاب في هذا الحوار اللفظ النبوي ؛ حين قابل النبي ﷺ الأعرابي المحاور بلغة تماثل لغته، وبألفاظ تدنو من ألفاظه، وكأني أسمع إلى نبرة الصوت ذاتها " قَدْ أَجَبْتُكَ " ، " سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ " ، " اللَّهُمَّ نَعَمْ " ، " اللَّهُمَّ نَعَمْ " ، " اللَّهُمَّ نَعَمْ " ... الإجابات المختصرة المتوالية هي ما يستدعيه المقام، المقام مقام سائل قد استجمع قواه سائلا، حتى ضمّن الأسئلة أجوبتها، فلا يحتاج من الجواب إلا التأكيد والإيجاب: " اللَّهُمَّ نَعَمْ " ! بهذه الحرف قابل السؤال (الله أمرك ...) ، يا لهذا الحوار النبوي العظيم ممن لا ينطق عن الهوى ﷺ.

(١) صحيح البخاري ١/ ١١١، و مسند البزار ١١ / ٣٨٥

في حين أن من حوارات النبي ﷺ مع المشركين ما تنتهي بإصرار المشرك على كفره، لا لنقص في الحوار وآدابه من لدن سيد الخلق ﷺ ، لكن لتكبر ذلك المشرك، ولعدم إرادة الله تعالى له الهداية، والله يهدي من يشاء، ومن ذلك ما جاء في الحوار المشهور بين الرسول ﷺ وعتبة بن ربيعة فيما روى عن محمد بن كعب القرظي ، قَالَ حَدَّثْتُ أَنَّ عُنْبَةَ بْنَ رِبِيعَةَ - وَكَانَ سَيِّدًا - قَالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحَدَهُ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، أَلَا أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمُهُ وَيَكْفَ عَنَّا ؟ وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حَمْرَةُ ، وَرَأَوْا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَزِيدُونَ وَيَكْثُرُونَ فَقَالُوا : بَلَى يَا أَبَا الْوَلِيدِ فَمَ إِلَيْهِ فَكَلِّمُهُ فَقَامَ إِلَيْهِ عُنْبَةُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا ابْنَ أَخِي ، إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدَّ عَلِمْتَ مِنَ السَّطَةِ فِي الْعَشِيرَةِ وَالْمَكَانِ فِي النَّسَبِ وَإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَكَ بِأَمْرٍ عَظِيمٍ فَرَفَّتْ بِهِ جَمَاعَتُهُمْ وَسَقَمَتْ بِهِ أَحْلَامُهُمْ وَعَبَتْ بِهِ آهَتُهُمْ وَدِينُهُمْ وَكَفَرَتْ بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ آبَائِهِمْ فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ تَقْبَلُ مِنْهَا بَعْضَهَا . قَالَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ قَالَ يَا ابْنَ أَخِي إِنْ كُنْتُ إِتَمَّا تُرِيدُ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالًا ، جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا ، حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا ، وَإِنْ كُنْتُ تُرِيدُ بِهِ شَرْفًا سَوِّدْنَاكَ عَلَيْنَا ، حَتَّى لَا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ ، وَإِنْ كُنْتُ تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلَكَانَا عَلَيْنَا ، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رِيئًا تَرَاهُ لَا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَن نَفْسِكَ ، طَلَبْنَا لَكَ الطَّبَّ ، وَبَدَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا حَتَّى نُبْرِتَكَ مِنْهُ فَإِنَّهُ رُبَّمَا غَلَبَ التَّابِعُ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُدَاوِيَ مِنْهُ أَوْ كَمَا قَالَ لَهُ حَتَّى إِذَا فَرَعَ عُنْبَةُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَمِعُ مِنْهُ قَالَ ﷺ : " أَقَدْ فَرَعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ؟ " قَالَ نَعَمْ قَالَ ﷺ : " فَاسْمَعْ مِنِّي " ، قَالَ أَفْعَلُ فَقَالَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ { حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ وَقَالُوا فُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ } (١) ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا يَفْرُوهَا عَلَيْهِ فَلَمَّا سَمِعَهَا مِنْهُ عُنْبَةُ أَنْصَتَ لَهَا ، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا ، يَسْمَعُ مِنْهُ ثُمَّ انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّجْدَةِ مِنْهَا ، فَسَجَدَ ثُمَّ قَالَ ﷺ : " قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ ، فَأَنْتَ وَذَلِكَ " ، فَقَامَ عُنْبَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : نَخْلِفُ بِاللَّهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِغَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ . فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهِمْ قَالُوا : مَا وَرَاءَكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ؟ قَالَ : وَرَائِي أَبِي قَدْ سَمِعْتَ قَوْلًا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ ، وَاللَّهِ مَا هُوَ بِالشَّعْرِ وَلَا بِالسَّحْرِ وَلَا بِالْكَهَانَةِ . يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَطِيعُونِي وَاجْعَلُونَهَا بِي ، وَخَلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلِ وَبَيْنَ مَا هُوَ فِيهِ فَاعْتَرِلُوهُ فَوَاللَّهِ لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتَ

(١) فُصِّلَتْ ١ - ٥

مِنْهُ نَبَأٌ عَظِيمٌ، فَإِنْ تُصِيبَهُ الْعَرَبُ فَقَدْ كَفَيْتُمْوهُ بِغَيْرِكُمْ، وَإِنْ يَظْهَرِ عَلَى الْعَرَبِ فَمَلِكُهُ فَمَلِكُكُمْ، وَعِزُّهُ عِزُّكُمْ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ قَالُوا : سَحَرَكَ وَاللَّهِ يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ. قَالَ: هَذَا رَأْيِي فِيهِ فَاصْنَعُوا مَا بَدَأَ لَكُمْ(١).

٤- حوار الرسول ﷺ مع أهل الكتاب :

المطلع على حوارات الرسول ﷺ مع أهل الكتاب يجد سمات الهدوء والرغبة في التوصل إلى الحق، والبعد عن الخصومة والعناد، فقد كان يختار معهم أطيب الكلام وألينه، لعله يكون مفتاحًا لقلوبهم وأقرب إلى القبول والتسليم.

من ذلك ما جاء في الحوار العظيم بين الرسول ﷺ وبين عبد الله بن سلام ؓ في مبتدأ الحوار، وبينه ﷺ وبين أحبار اليهود في منتهاه ، فقد روى أنس ؓ ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ ؓ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَقْدَمَهُ الْمَدِينَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي سَأئِلُكَ عَنْ ثَلَاثِ خِصَالٍ، لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ قَالَ: "سَلْ" ، قَالَ: مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟، وَمَا أَوَّلُ مَا يَأْكُلُ مِنْهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟، وَمِنْ أَيِّنَ يُشْبِهُ الْوَلَدُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ؟، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَخْبَرَنِي بِحَنٍّ جَزِيلٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنفًا" . قَالَ: ذَلِكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، قَالَ ﷺ: "أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، فَنَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْمَشْرِقِ فَتَحْشُرُ النَّاسَ إِلَى الْمَغْرِبِ. وَأَمَّا أَوَّلُ مَا يَأْكُلُ مِنْهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ، زِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ. وَأَمَّا شَبَهُ الْوَلَدِ أَبَاهُ وَأُمَّهُ، فَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ، مَاءَ الْمَرْأَةِ، نَزَعَ إِلَيْهِ الْوَلَدُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الْمَرْأَةِ مَاءَ الرَّجُلِ نَزَعَ إِلَيْهَا". قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُجْتُ، وَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي يَبْهَتُونِي عِنْدَكَ، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلْهُمْ عَنِّي: أَيُّ رَجُلٍ ابْنُ سَلَامٍ فِيكُمْ؟ قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ ﷺ: " أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فِيكُمْ؟" قَالُوا: حَيْرِنَا وَابْنُ حَيْرِنَا، وَعَالِمِنَا وَابْنُ عَالِمِنَا، وَأَفْقَهِنَا وَابْنُ أَفْقَهِنَا، قَالَ: " أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ تُسَلِّمُونَ؟" قَالُوا: أَعَادَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَخَرَجَ ابْنُ سَلَامٍ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، قَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا، وَجَاهِلُنَا وَابْنُ جَاهِلِنَا، فَقَالَ ابْنُ سَلَامٍ: هَذَا الَّذِي كُنْتُ أَتَخَوَّفُ مِنْهُمْ (٢).

(١) الاعتقاد للبيهقي ٢٦٧

(٢) صحيح البخاري ٧٠ / ٥ ، ومسنند أحمد ١٩ / ١١٤

المبحث الثاني

حوارات النبي ﷺ أمنا عائشة رضي الله عنها

(ظاهرة الاستفهام خاصة)

بلغت حوارات النبي ﷺ أم المؤمنين أمنا عائشة رضي الله عنها مبلغاً كبيراً عدداً ، وتنوعت تنوعاً بيّناً كماً، وبناء على هذين التوعين كثرت الخصائص المأخوذة من هذه الحوارات الشريفة، وذلك من البلاغة النبوية الراقية التي يراعي فيها : " الأسلوب البلاغي جوانب كثيرة تتعلق بالمخاطب؛ فاستحضره في التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والتعريف والتنكير، والإيجاز والإطناب، وفي ضروب الخبر المختلفة، وفي صياغة الصورة الأدبية، وفي وضوح الكلام وشفافيته " (١).

وسأجعل هذا المبحث قائماً على استجلاء الخصائص الفنية في الأنماط المتعددة للحوارات القائمة بين سيد ولد آدم محمد ﷺ وبين أحب النساء إليه الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها وعن أبيها وأرضاهما، فيما يتعلق بظاهرة (الاستفهام)، وذلك على النحو التالي:

في العموم نرى خاصية مهمة من خصائص الحوار بين الرسول ﷺ وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ تلكم هي ظاهرة الإيجاز، التي سأعرج عليها من خلال الحديث عن الظاهرة محل الدراسة؛ ظاهرة الاستفهام.

١ - الإيجاز:

بالاطلاع على العديد من حوارات النبي ﷺ مع أمنا عائشة رضي الله عنها نجد خاصية (الإيجاز) ظاهرة أسلوبية بينة.

الإيجاز الذي يجعل كلمه صلى الله عليه وسلم كما يقول الرافي رحمه الله : "محدوفة الفضول، حتى ليس فيها كلمة مفصولة. وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم، وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر من خواطره صلى الله عليه وسلم " (٢).

ومن دواعي هذه الظاهرة هو فهم الطرفين المتحاورين بعضهما بعضاً، مع إيمان النبي ﷺ بذكاء زوجه عائشة رضي الله عنها، وفهمها السريع للأحكام، وعدم الحاجة للإطالة في غير موضعها.

(١) أثر المتلقي في التشكيل الأسلوبية في البلاغة العربية، أ.د. وليد إبراهيم القصاب، ندوة الدراسات البلاغية والواقعية والمأمول ٦٦٢

(٢) تاريخ آداب العرب ٢ / ١٨٥

وقد يكون الداعي للإيجاز في الحوار ظرف السفر، والتلبس بالحكم الشرعي والانشغال بأعمال الحج والعمرة، والتعلق بالرفقة الآخرين ممن يراعى ظرفهم حتى باختصار الحوار مع الزوج المحبوبة.

ومن الحوارات التي تبين شيئا من هذه المعاني ما جاء في حجة الوداع، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةٍ لَا نَرَى إِلَّا الْحَجَّ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِسَرْفٍ أَوْ قَرِيْبًا مِنْهَا، حِضْتُ ، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي ، فَقَالَ : "مَا لِكِ أَنْفُسَتِ ؟" ، قُلْتُ : نَعَمْ ، فَقَالَ ﷺ : "إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ ، فَأَفْضِي مَا يَفْضِي الْحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ " ، قَالَتْ : وَضَحَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ نِسَائِهِ الْبَقْرَ هَذَا حَدِيثٌ مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ (١).

فالرسول ﷺ أوجز غاية الإيجاز، إذ استفهم عن سبب بكاء حبيته زوجه عائشة رضي الله عنها، ثم بين لها الحكم الشرعي موجزا أيضا بعد ما ذكرت له سبب البكاء، وبه يزول العناء، ويحصل المراد، دون إطالة ولا إحراج!

وفي هذا الحديث القائم على الحوار تتجلى خاصية من خصائص حوارات النبي ﷺ وهي: (العلم بمادة الحوار) (٢).

ذلك العلم الذي هو من أعظم مرتكزات الحوار، ومن أمضى أسلحته، إذ لا بد للمحاور أن يكون حواراه قائما على العلم والبصيرة.

ويتأكد هذا في حق المحاور المعلم المرشد الداعية الذي يخاطب الجاهلين، وينبه الغافلين، ويرد على شبهات المخالفين.

ويتأكد أكثر إذا كان المحاور يأمل الإفادة ممن يحاوره.

(١) صحيح البخاري ١/ ٦٧، و صحيح مسلم ٢/ ٨٨١، وشرح السنة للبغوي ٣/ ٣٦٨، و مسند الشافعي : ١١١، و مسند الحميدي ١/

٢٦٠، و صحيح ابن خزيمة ٤/ ٣٠٢

(٢) ينظر : الحوار في السيرة النبوية ١٨

وفيه يظهر جمال الاستفهام من خلال خاصية من خصائصه التركيبية المتمثلة في لغته المبنية على الاستفهام —(ما) الدالة على العموم "مَالِكٍ"؟ بهذا السؤال العام؛ ما شأنك؟ ما خطبك؟ ما الأمر؟ ما الداعي إلى البكاء؟ ومن الاستفهام العام المبهم، مباشرة إلى الاستفهام الأخص، "أَنْفَسْتِ"؟

ومن الملاحظ أن الحسنَّ النبويَّ الكريم أتبع الاستفهام العام بالاستفهام المحدد المتضمن الجواب في لفظ الاستفهام نفسه؛ "أَنْفَسْتِ"؟ وكأنه صلى الله عليه وسلم لم يرد التكليف على زوجه الشابة الباكية حتى بمجرد الجواب، وإنما تحمّل عنها صلى الله عليه وسلم عناء الجواب؛ إذ يكفيها ما فيها من الألم النفسي المستوجب للبكاء.

ومن جماليات الاستفهام هنا إيراده بالاستفهامات المغلقة غير المفتوحة "أَنْفَسْتِ"؟ الاستفهام المبني على همزة التصديق؛^(١) لتحديد الجواب، دون الحاجة إلى التفاصيل، ولذلك جاء جواب أمنا عائشة رضي الله عنها محدّدًا مقتصرًا على كلمة واحدة كلمة الإيجاب (نَعَمْ).

وتأكيدًا للمشاعر الراقية من لدنه صلى الله عليه وسلم أتبع الاستفهام بالتسلية ومراعاة المشاعر "إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ"، فلا تقلقي يا عائشة، ولا تحزني من وقوع أمرٍ لست فيه الوحيد؛ وإنما هو "أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ"، إذًا فلم الحزن؟ وما الداعي إلى البكاء؟

إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم تجاوز الحديث البشري الإنساني إلى البيان الفقهي الشرعي جامعًا بين كونه صلى الله عليه وسلم {بَشَرًا رَسُولًا} (٢)، ولذا ختم بالحكم الشرعي بعد أن مهّد بالتسلية النفسية: "فَأَقْضِي مَا يَقْضِي الْحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ". وفي التأمل في جو الحديث الشريف نلاحظ أنه صلى الله عليه وسلم حتى في إيراد الحكم الشرعي راعى الحالة النفسية لمن يحاورها أمنا عائشة رضي الله عنها فأور لها الحكم بصيغةٍ تشعر بعدم الاختلاف ولا التفرقة بين صاحبة هذه الحالة وبين الحجاج عامة "فَأَقْضِي مَا يَقْضِي الْحَاجُّ" بمعنى لم يفتك من أعمال الحج شيء، وفي ذلك من التسلية ما فيه، ولذا الاستثناء في الفارق

(١) ينظر مثلاً: الإيضاح في علوم البلاغة ٥٦ / ٣

(٢) الإسراء: ٩٣

الأقل، والرخصة الأيسر " غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ "، يا له من بيان نبوي شرعي إنساني، صلى الله وسلم على من كان {بَشْرًا رَسُولًا} (١).

ومن الإيجاز البين ما جاء في جواب رسول الله ﷺ عن سؤال الزوج الودود التي أشفقت على زوجها من الاجتهاد في العبادة اجتهادا أدى إلى تفتّر القدمين الشريفتين، لنستمع ونستمع بهذا الحوار الإيماني في بيت النبوة، عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لَمْ تَصْنَعْ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟! قَالَ: " أَفَلَا أَحَبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟" (٢).

إيجاز يدل - مع ما فيه من التوجيه - على إيمان النبي ﷺ بذكاء عائشة رضي الله عنها، وأنها تقرأ مفهوم العبارة مع منطوقها، وفيه ما فيه من هداية المخاطب إلى ما يحسن العمل به (٣).

ومما بدا فيه الإيجاز بجلاء هذا الحوار التوجيهي: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدِي امْرَأَةٌ، فَقَالَ: " مَا هَذِهِ؟" فَقُلْتُ: لَا تَنَامُ اللَّيْلَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " مَهْ، عَلَيْكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ مَا يَدُومُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ" (٤).

والمقام مقام إيجاز وحزم وحسم، فالرسول ﷺ أعلم بما يطيق الصحابة من الأعمال، وما قد يؤدي بهم إلى الملل، لذا حسم المسألة بهذا التوجيه الموجز.

ومن حوارات النبي ﷺ الموجزة مع عائشة رضي الله عنها ما جاء في قصة طلب الطعام، حيث حاور رسول الله ﷺ أهل بيته عائشة رضي الله عنها مستفهما عن طعام؟ فأخبرته رضي الله عنها أنه ليس في بيت النبوة طعام إلا طعام لا يأكله ﷺ لكونه من لحم الصدقة، فأنهى ﷺ الحوار بالطف عبارة، وأكمل معاني الصبر على قلة الطعام، مع الوضوح في بيان الحكم الشرعي الذي تحولت به الصدقة إلى هدية، وهو ما جاء

(١) الإسراء: ٩٣

(٢) صحيح البخاري ٦/ ١٣٥، و صحيح مسلم ٤/ ٢١٧٢

(٣) للفائدة ينظر: من أساليب التربية الإسلامية التربية بالحوار ١٦

(٤) صحيح البخاري ١/ ١٧، و صحيح مسلم ١/ ٥٤٢، ومسند إسحاق بن راهويه ٢/ ١٣٩

عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ الْأَنْصَارِيَّةِ قَالَتْ: بَعَثَتْ إِلَيَّ نُسَيْبَةُ الْأَنْصَارِيَّةُ بِشَاةٍ، فَأَرْسَلْتُ إِلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مِنْهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَعِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟" قَالَتْ: لَا إِلَّا مَا أَرْسَلْتُ بِهِ نُسَيْبَةُ مِنْ تِلْكَ الشَّاةِ قَالَ: "قَرِّبِيهِ فَقَدْ بَلَغَتْ مَحَلَّهَا" (١).

حوار تجلّى فيها الإيجاز بوضوح؛ اقتصر فيه النبي صلى الله عليه وسلم على الاستفهام الابتدائي الحقيقي "أَعِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟"، وما أن جاءه صلى الله عليه وسلم الجواب المفهم الاعتذار عن عدم مناسبة الطعام الموجود لمقام النبوة؛ لكونه مبنياً على ما تبادر إلى ذهن المخاطب، واستقر فيه من كون الموجود طعام صدقة، والصدقة لا تحلّ له صلى الله عليه وسلم، كما جاء في ذلك التصريح في رواية مالك رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها: "وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْبُرْمَةُ تَفُورُ بِلَحْمٍ، فَقُرِّبَ إِلَيْهِ حُبْزٌ، وَأُذْمٌ مِنْ أَدَمِ الْبَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَمْ أَرِ بُرْمَةً فِيهَا لَحْمٌ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَحْمٌ تُصَدِّقُ بِهِ عَلَى بَرِيْرَةَ، وَأَنْتَ لَا تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هُوَ عَلَيْهَا صَدَقَةٌ، وَهُوَ لَنَا هَدِيَّةٌ" (٢)؛ بعد هذا الجواب من المحاور - أمنا عائشة رضي الله عنها - أوجز النبي صلى الله عليه وسلم خاتماً الحوار بتصحيح الفهم لدى المحاور، إيماناً منه بتقبله الحكم متى ما تبين له، فجاء النص النبوي موجزاً حاملاً الحكم الشرعي التصحيحي: "هُوَ عَلَيْهَا صَدَقَةٌ، وَهُوَ لَنَا هَدِيَّةٌ".

ومن الحوارات النبوية التي جاءت بأسلوب الإيجاز ما نقف عليه في الحوار القائم على بيان الحكم الشرعي فحسب، دون إطالة في الحوار، عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا رَجُلٌ، فَكَأَنَّهُ تَغَيَّرَ وَجْهُهُ، كَأَنَّهُ كَرِهَ ذَلِكَ، قَالَ ﷺ: "يَا عَائِشَةُ! مَنْ هَذَا؟" فَقَالَتْ: إِنَّهُ أَخِي مِنَ الرِّضَاعَةِ. فَقَالَ ﷺ: "انظُرْنَ مِنْ إِخْوَانِكُنَّ؛ فَإِنَّمَا الرِّضَاعَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ" (٣).

(١) صحيح البخاري ١١٦/٢، و مسند أحمد ٤٥/٤٥

(٢) موطأ مالك ١/٦١٦

(٣) صحيح البخاري ٣/١٧٠، و شرح السنة للبعوي ٨٣/٩

فمع أن الموقف مثير للانتباه، ومع أن أحداث القصة مدعاة للكراهية كما جاء في السرد السابق إلا أن الزوج الحاني، الرؤوف الرحيم ﷺ لم يعنّف، ولم يوبّخ، وإنما وجّهه، وجّهه فحسب! وأيُّ إيجاز اكتسى بالرحمة وتغلّف ببيان الواجب كهذا الإيجاز؟!

وفي هذا الحوار النبوي الزوجي يظهر أصل من أصول الحوار المرعية لدى خير الخلق محمد صلى الله عليه وسلم وهو أصل التثبيت في أثناء الحوار؛ وذلك بمراعاة الحقوق الثابتة، والأدلة الصريحة الواضحة، والقيام على أساسي الصدق واليقين لا على الظنون والأوهام؛ ولذا سأل صلى الله عليه وسلم مثبّتًا: " يا عائشة! من هذا؟" ومع التثبيت يأتي التوجيه المناسب للموقف: " انظُرْنَ مَنْ إِخْوَانُكُمْ؟ فَإِنَّمَا الرِّضَاعَةُ مِنَ المَجَاعَةِ".

كما يظهر من خلال هذا الحوار النبوي الراقي أصل من أصول الحوار النبوي الرائدة، وهو سلامة المقصد الذي هو من أعظم مقومات الحوار النبوي، لما اشتمل عليه من إخلاص النية، والرغبة في الوصول إلى الحق، والبعد عن الأغراض الشخصية، ولما توجه من حسن الظن، والحرص على تبيين الحق من خلال أدبيات الحوار القائم على الاستفهام!

ومن ظواهر الإيجاز ما يتعلق بإراحة الطرف الآخر المحاور، عن طريق إزالة شبهة انقدحت في ذهنه، فيقوم البيان النبوي بإزالته عن طريق حوار موجز هادف ببناء، عن عائشة رضي الله عنها قالت استأذَنَ عَلِيٌّ أَفْلَحَ أَخُو أَبِي الْمُعَيْسِ بَعْدَمَا أَنْزَلَ الْحِجَابَ فَقُلْتُ لَا آدُنُّ لَهُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ فِيهِ النَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّ أَحَاهُ أَبَا الْمُعَيْسِ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي وَلَكِنْ أَرْضَعَنِي امْرَأَةٌ أَبِي الْمُعَيْسِ فَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَفْلَحَ أَخَا أَبِي الْمُعَيْسِ اسْتَأْذَنَ فَأَبَيْتُ أَنْ آدُنَّ لَهُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَكَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ " وَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْذِنِي؟! عَمَّكَ " قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي وَلَكِنْ أَرْضَعَنِي امْرَأَةٌ أَبِي الْمُعَيْسِ فَقَالَ " ائْذِنِي لَهُ فَإِنَّهُ عَمُّكَ تَرَبَّتْ يَمِينُكَ " قَالَ عَزْوَةٌ فَلِذَلِكَ كَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ حَرِّمُوا مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا تُحَرِّمُونَ مِنَ النَّسَبِ (١).

وهنا تقف على كون الإيجاز مشربا أسلوبيا مهما في مثل هذه المواقف التي لا تتطلب إطالة في الحوار، إذ المقصود الأهم بيان الحكم الصحيح، وإزالة الالتباس، وفق أصل مهم في الحوار الذي هو التثبيت " وَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْذِنِي؟! " ثم أن رأى صلى الله عليه وسلم الشبهة لا زالت قائمة لدى المحاور: (يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي وَلَكِنْ أَرْضَعَنِي امْرَأَةٌ أَبِي الْمُعَيْسِ)، أوجز صلى الله عليه وسلم مرة أخرى في العبارة

(١) صحيح البخاري ١٢٠ / ٦ ، و صحيح مسلم ١٠٦٩ / ٢ ، و مصنف عبد الرزاق الصنعاني ٧٢٧ / ٧

باستخدام صيغة الأمر المباشر، الأمر على جهته الحقيقية "أُذِّنِي لَهُ"، أمر من الجهة العليا، و" طلب المتصور على سبيل الاستعلاء يورث إيجاد الإتيان به على المطلوب منه، ثم إذا كان الاستعلاء ممن هو أعلى رتبة من المأمور استتبع إيجابه" (١) ثم زاد صلى الله عليه وسلم البيان بالعبارة الموجزة التعليلية " فَإِنَّهُ عَمُّكَ تَرَبَّتْ يَمِينُكَ".

حوار لا نكاد نقف على بدايته إلا ونقف على نهايته، لكنه مع إيجازه البليغ اشتمل على التثبيت، وإزالة شبهة عالقة، وبيان حكم شرعي بجلاء، مع الأمر بتنفيذ الأمر تنفيذا لا يحتمل ورود الشبهة مرة أخرى.

٢ - الاستفهام المفرد:

اشتملت أحاديث النبي ﷺ المبنية على الحوار بينه وبين أمنا عائشة رضي الله عنها في مجملها على ظاهرة (الاستفهام)، وهو أمر طبعي يستدعيه المقام، ويتطلبه الموقف، وينادي به الأسلوب الحوارى القائم على التفاعل بين طرفين.

وقد تنوع الاستفهام في حوارات النبي صلى الله عليه وسلم بين مجيئه مرة واحدة، وبين تكراره، ومن مجيئه مرة واحدة ما ثبت عن عُرْوَةَ أَنَّهَا كَانَتْ عِنْدَ عَائِشَةَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: "مَنْ هَذِهِ؟" قَالَتْ عَائِشَةُ: هَذِهِ فُلَانَةٌ وَلَا تَنَامُ تَذَكُّرُ مِنْ صَلَاتِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا" قَالَتْ عَائِشَةُ: أَحَبُّ الدِّينِ الَّذِي يَدُومُ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ" (٢).

من الملاحظ أن الحوار اقتصر على استفهام افتتاحي صادر منه صلى الله عليه وسلم "مَنْ هَذِهِ؟" ثم استمر الحوار دون استفهامات، لأن المراد بالاستفهام تمّ بالجواب عنه.

(١) مفتاح العلوم ص: ٣١٨

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٥٤، ومسند أحمد ٤٠/ ١٥١، و صحيح ابن حبان ٦٧/ ٢

ومن المقرر في العربية أن (مَنْ) تتطلب "سؤالاً عن مَنْ يعقل، نحو قولك: مَنْ هذا؟" (١)، ولذلك " فَالْجَوَابُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُقَالَ: زَيْدٌ أَوْ عَمْرُو" (٢)، إلا أن عائشة رضي الله عنها أجابت بأكثر مما طُلب منها؛ ولعل ذلك والله تعالى أعلم لبيان أمرٍ امتازت به المسؤول عنها، أو للرجبة في إطالة الحديث مع الحبيب السائل صلى الله عليه وسلم على حدّ تعبير البلاغيين: " لأن إصغاء السامع مطلوب، فيسقط الكلام افتراضاً بسط موسى إذ قيل له " { وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ } (٣)، وكان يتم الجواب بمجرد أن يقول عصا، ثم ذكر المسند إليه وزاد فقال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى " (٤).

ومن المحتمل أن يدخل جواب أمنا عائشة رضي الله عنها في حدّ تعريف البلاغيين الأسلوب الحكيم؛ بقولهم: "تلقي المخاطب بغير ما يتقرب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب" (٥).

ولله في ذلك الجواب حكمة، فقد أدى هذا الجواب من أمنا عائشة رضي الله عنها فتح باب للتوجيه في النظرة المعتدلة للعبادات في الإسلام، دون تكلف، ولا تقصير؛ ذلك أن ديننا الحنيف هو دين الوسطية. فالمرأة المصلية، وإن كانت على خير؛ إلا أن مبالغتها في عدم النوم قد تؤدي بها إلى الملل المذموم، فتترك العبادة التي كانت حريصة عليها.

٣- تكرار الاستفهام:

وإذا كان الإيجاز ظاهرة بيّنة في الاستفهام الوارد في هذه الحوارات محل الدراسة، ومنه مجيء الاستفهام مرة واحدة في الحوار، إلا أن ذلك لم يتعارض مع ظواهر أخرى مثل (تكرار الاستفهام).

(١) الأصول في النحو ٢ / ١٣٥

(٢) علل النحو ٤٢٦

(٣) طه: ١٧

(٤) مفتاح العلوم ١٧٧

(٥) الإيضاح في علوم البلاغة ٢ / ٩٤

فقد جاءت ظاهرة الاستفهام متعددة الألوان، متنوعة الطرق، فتارة يكون الاستفهام من الطرفين المتحاورين كليهما، وتارة يكون الاستفهام من النبي ﷺ فحسب، ليكون الجواب من السيدة عائشة رضي الله عنها فيأتي التوجيه النبوي خاتماً للحوار.

فمن الحوارات التي ورد فيها الاستفهام من الطرفين المتحاورين كليهما ما جاء في قصة العبد الشكور محمد ﷺ فيما جاء عن عائشة رضي الله عنها أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقالت عائشة لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال " أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً " فلما كثرت لحمته صلى جالساً فإذا أراد أن يركع قام فقرأ ثم ركع (١).

فعائشة رضي الله عنها افتتحت الحوار باستفهام نابع من القلب، مغلف بالحب، مكسو بالشفقة، مصوغ بالمهابة والإجلال، معلل بأدب، مؤدب بتعليل، استفهام لا يخلو من روح المودة والرحمة بين الزوجين، استفهام زوج شفوق على زوجها المجتهد بعبادته ربه تعالى (لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر)؟ وهنا يجيب النبي ﷺ وهو الطرف الآخر في الحوار ذلكم الاستفهام باستفهام آخر، استفهام جاء بمثابة الجواب، وليس أي جواب! استفهام يحمل معاني التوجيه والإرشاد، المصحوبة بالتواضع والتذلل لله رب العباد، استفهام يخلو من العتاب على الزوج الرحيمة، استفهام يقتصر على بيان العلة الداعية إلى الاستمرار في العبادة التي تبدو في ظاهرها شاقة عليه صلى الله عليه وسلم إجابة على استفهام الرحمة باستفهام التعليل والمحبة: " أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً؟ " وهكذا اشتمل هذا النص الحواري على استفهامين اثنين، الآخر منهما كان بمثابة الجواب.

ونلاحظ ما في اللفظ النبويّ البليغ من الاصطفاء الجميل للفظين بديعين اشتملا على معنيين من المعاني الراقية، المعاني الجامعة للإنسانية والعبودية: " عبداً شكوراً؛ العبودية التي هي أشرف المراتب، ذلك أن الله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه...، ووصف أكرم خلقه عليه، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته " (٢).

(١) صحيح البخاري ٦/ ١٣٥، و صحيح مسلم ٤/ ٢١٧٢

(٢) التفسير القيم: ٩٦

والشكر ذلك المعنى الإنساني الشريف النبيل، المعنى الذي يحمل - إضافة إلى معناه الشرعي - معنى راقيا لا يتمثله إلا البشر الذين يتمتعون بدرجة عالية من الإنسانية، لما في الشكر من الانكسار لله المنعم تعالى، حيث إنَّ " النعم نوعان: مستمرة، ومتجددة، فالمستمرة شكرها بالعبادات والطاعات، والمتجددة شرع لها سجود الشكر؛ شكرا لله عليها، وخضوعا له وذلك، في مقابلة فرحة النعم وانبساط النفس لها، وذلك من أكبر أدوائها؛ فإن الله سبحانه لا يحب الفرحين ولا الأشيرين؛ فكان دواء هذا الداء الخضوع والذل والانكسار لرب العالمين " (١).

وقد سُمِّي رسول الله صلى الله عليه وسلم " الأعمال شكرا، وأخبر أن شكره قيامه بها ومحافظته عليها، فحقيقة الشكر هو الثناء على النعم ومحبتة والعمل بطاعته، كما قال:

أفادتكم النعماءُ عندي ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا (٢)

فاليد للطاعة، واللسان للثناء، والضمير للحب والتعظيم " (٣).

ومما زاد معنى الشكر جمالا وتأثيرا وروده على صيغة مخصوصة؛ صيغة المبالغة، (فعول)؛ التي تدل على ما يدل عليه اسم الفاعل مع مبالغة، على حدِّ قول سيبويه رحمه الله: أنهم "أجروا اسمَ الفاعل، إذا أرادوا أن يبألغوا في الأمر، مُجراه إذا كان على بناء فاعلٍ، لأنَّه يريد به ما أراد بفاعل من إيقاع الفعل، إلاَّ أنَّه يريد أن يُحدِّثَ عن المبالغة" (٤).

ومما يلحظ في هذا الجزء من النصِّ الشريف ما اشتمل عليه من توظيف اللفظ القرآني البليغ؛ بواسطة الاقتباس لمفردتين قرآنيتين، وهو ما يُعرف بالتناصُّ الذي يعني " تعالق نصوص مع نص حدث بكيفيات

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ٢ / ٢٩٦

(٢) ورد البيت بدون عزو في عدد من المصادر؛ منها: غريب الحديث للخطابي ١ / ٣٤٦، والكشاف ١ / ٤٧، والفاائق ١ / ٣١٤، والدر

المصون ١ / ٣٦

(٣) طريق المهجرتين وباب السعادتین ٣٤٦

(٤) الكتاب ١ / ١١٠

مختلفة" (١)، وقد جاءت هاتان المفردتان متفقتين مع النص القرآني مادة وصيغة؛ حيث يتبادر إلى الذهن عن سماعنا قوله صلى الله عليه وسلم "عَبْدًا شَكُورًا" قوله تعالى: {ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} (٢).

ومما يمكن تلمسه في هذا الاقتباس الشريف أنه داخل في عموم أمر الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم الاقتداء بمن سبقه من إخوته الأنبياء الذين هداهم الله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ} (٣)، ومن الاقتداء بهم قيامه صلى الله عليه وسلم بعبادة ربه وشكره، كما عبد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ربهم وشكروه.

وعلى الأخص الاقتداء بـ(نوح) عليه الصلاة والسلام، إذ " في تخصيص نوح ها هنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به فإنه أبوهم الثاني؛ فإن الله تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلا إلا من ذريته، كما قال تعالى {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} (٤) ، فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر فإنه كان عبدا شكورا" (٥).

وكانه صلى الله عليه وسلم يجيب على استفهام زوجه المشفقة عليه أمنا عائشة رضي الله عنها باستفهام يحمل في مضمونه استفهام التاريخ النبوي المشرق بالاقتداء بأبيه نوح عليه الصلاة والسلام، حتى يخفف على زوجه المشفقة ما تجده من ألم وجداني نحو ما قد يجده زوجها صلى الله عليه وسلم من الألم رغم عدم وجود الداعي له في الظاهر (وَقَدْ عَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)؟ ولذا جاء الجواب في صورة استفهام كافي شافيا.

٤ - الالتفات:

(١) تحليل الخطاب الشعري ١٢١

(٢) الإسراء: ٣

(٣) الأنعام ٩٠

(٤) الصافات: ٧٧

(٥) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ١١٨

الالتفات فن بلاغي وارد في الأساليب البلاغية التي تطالعنا في الحوارات النبوية محل الدراسة، وهو فن من الفنون التي تحدث عنها البلاغيون؛ فها هو ابن المعتز يقول عنه: "أشار إليه صاحب الجمهرة فذكر أن العرب تخاطب الشاهد مخاطبة الغائب، وكذلك فعل المبرد، فذكر أن العرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد وبالعكس" (١).

وقد جاء الالتفات هنا عن طريق إحدى طرقه الستة المشهورة (٢) حيث انتقل ﷺ بحديثه من مخاطبة المرأة الحاضرة، إلى عموم الخطاب للحاضرين والغائبين، رحمة بالأمّة، وشفقة عليهم، ومعرفة بأحوالهم "عَلَيْكُمْ مَا تُطِيقُونَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا" (٣)، وفي انتقاله ﷺ في الحديث من خطاب هذه المرأة وتوجيهها إلى الخطاب العام للحاضرين والغائبين مراعاة لمشاعرهما ألا يتوجه لها الإرشاد وحدها بحضور غيرها، ورسول الله ﷺ إمام في الأخلاق الكريمة، وسيّد في مراعاة المشاعر.

وهنا يجدر بي أن أشير إلى معنى الملل الوارد في الحديث هنا، وعن نسبته إلى الله تعالى، حيث بين ذلك العلماء، ومن ذلك قول الشيخ محمد بن صالح ابن عثيمين في جواب حول إثبات "صفة الملل والهرولة لله تعالى... جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "فإنَّ الله لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا"، فمن العلماء من قال: إنَّ هذا دليل على إثبات الملل لله، لكن؛ ملل الله ليس كملل المخلوق؛ إذ إنَّ ملل المخلوق نقص؛ لأنه يدل على سأمه وضجره من هذا الشيء، أما ملل الله؛ فهو كمال وليس فيه نقص، ويجري هذا كسائر الصفات التي نثبتها لله على وجه الكمال وإن كانت في حق المخلوق ليست كمالاً.

ومن العلماء من يقول: إنَّ قوله: لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا؛ يراد به بيان أنه مهما عملت من عمل؛ فإنَّ الله يجازيك عليه؛ فاعمل ما بدا لك؛ فإنَّ الله لا يمل من ثوابك حتى تمل من العمل، وعلى هذا، فيكون المراد بالملل لازم الملل

(١) البديع في البديع لابن المعتز ٣٢، وينظر: جمهرة أشعار العرب ١٥، والكمال الكامل في اللغة والأدب ١٧/٣

(٢) ينظر مثلاً: الإيضاح في علوم البلاغة ٨٦/٢

(٣) صحيح البخاري ٥٤/٢، ومسند أحمد ١٥١/٤٠، و صحيح ابن حبان ٦٧/٢

ومنهم من قال : إنَّ هذا الحديث لا يدل على صفة الملل لله إطلاقاً ؛ لأنَّ قول القائل : لا أقوم حتى تقوم ؛ لا يستلزم قيام الثاني ، وهذا أيضا : لا يدل على ثبوت الملل لله عزَّ وجلَّ.

وعلى كل حال يجب علينا أن نعتقد أنَّ الله تعالى مُنَزَّه عن كل صفة نقص من الملل وغيره ، وإذا ثبت أنَّ هذا الحديث دليل على الملل ؛ فالمراد به ملل ليس كملل المخلوق^(١).

٥ - تتابع الاستفهامين:

ومن الصور التي ورد فيه الاستفهام في الحوارات النبوية محل الدراسة، أن يُصدَّر الحوار باستفهامين متتالين؛ لمزيد الإثارة ولفت الانتباه، وقد يصاحبه بعض الأغراض النفسية من تخفيف المعاناة، وتحويل الألم على المحاور، وهذا ما نجده في الاستفهامين الرقيقين المتتالين الذين افتتح بهما رسول الرحمة ﷺ حواراه مع زوجه الشابة الباكية مما نزل بها من الأمور الطبيعية التي كانت تظن أنها ستحرمها من بعض فضائل الحج، وهو ما نقف عليه في هذا الحوار الزوجي الإنساني النفسي فيما جاء عن عائشة رضي الله عنها ، أَمَّا قَالَتْ : حَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي حَجَّةٍ لَا نَرَى إِلَّا الْحُجَّ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِسَرِفٍ أَوْ قَرِيبًا مِنْهَا ، حِضْتُ ، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي ، فَقَالَ : مَا لِكَ أَنْفَسْتِ ، قُلْتُ : نَعَمْ ، فَقَالَ : إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ ، فَأَقْضِي مَا يَفْضِي الْحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ ، قَالَتْ : وَضَحَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ نِسَائِهِ الْبَقَرِ (٢).

فالحوار النبوي الشريف قد اشتمل على استفهامين متتالين: " مَا لِكَ أَنْفَسْتِ ؟ " وقد اشتمل الاستفهام الآخر على جواب السؤال الأول، مراعاة لحال الزوج الباكية! لئلا يضطرها إلى الجواب، وقد تجلَّى في هذا الجزء من الحوار مراعاة رسول الله صلى الله عليه وسلم " لحال زوجه رضي الله عنها عن طريق تحيُّر الأسلوب والألفاظ، فعبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحيض بالنفاس؛ وذلك لأن مادة (ن ف س) تتكون من حروف أسهل مخرجا ونطقا من حروف مادة (ح ي ض) ... فخرج اللفظ سيكون هادئا

(١) صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة ص ٣٢٨

(٢) صحيح البخاري ١/ ٦٧ ، و صحيح مسلم ٢/ ٨٨١ ، و شرح السنة للبعوي ٣/ ٣٦٨ ، و مسند الشافعي : ١١١ ، و مسند الحميدي ١/

٢٦٠ ، و صحيح ابن خزيمة ٤/ ٣٠٢

ورقيقا، يُشعر باللين واللطف، وربما كان لهذه اللفظة إيجاء بعانٍ أخرى تشاركها في المادة كالتنفيس والتنفيس وغيرهما، وهي معانٍ إيجابية، لا توحى بها لفظة (الحيض) (١).

وكان من ثمرات هذا الحوار المبارك بيان بعض الأحكام الخاصة بالنساء مما هو من رحمة الله تعالى بهن كلما تكرر حج أو عمرة، فيا لله كم كان لذاكم الحوار من فضل وبركة امتدت قرونا من الزمان.

وبمزيد من التأمل في حوار النبي صلى الله عليه وسلم هذا نقف على مقصد سامٍ من مقاصد حواراته صلى الله عليه وسلم، وهو مقصد العدل الذي تجلّى في كونه صلى الله عليه وسلم لم يفرّق بين عمل أمنا عائشة رضي الله عنها وبين أعمال سائر الحجاج، "فَأَقْضِي مَا يُقْضِي الْحَاجُّ"، ثم زاد صلى الله عليه وسلم في العدل بإسقاط طواف الوداع عنها، وبذلك تتضح سمة العدل بين عامة الناس، وبين أصحاب الأعذار، العدل بالعفو عما يثقل عليه، دون مجاملته يجعله فوق الآخرين في التكليف، حتى في أمور العبادات.

ذلك أن العدل قوام الحياة، وعليه قامت السموات والأرض، "والعدل مما تواطأت على حسنه الشرائع الإلهية، والعقول الحكيمة، وتمدّح بادعاء القيام به عظماء الأمم، وسجلوا تمدّحهم على نقوش الهياكل من كلدانية، ومصرية، وهندية.

وحسن العدل بمعزل عن هوى يغلب عليها في قضية خاصة، أو في مبدأ خاص تنتفع فيه بما يخالف العدل بدافع إحدى القوتين: الشهوية، والغاضبة" (٢).

وواضح غاية الوضوح كيف قام هذا الحوار الراقى على أس العدل، ومرتكز الإنصاف، مع ما صاحبه بيان الحكم الشرعي في غاية الوضوح، الذي اتضح به جمال الحق، وعظمة الإنصاف المقرون بالإحسان، فصلّى الله وسلم وبارك على إمام الهدى والعدل محمد بن عبد الله.

وهذا المنهج النبوي الراشد القائم على العدل من أعظم ما يحفظ على الناس أقدارهم، ويحمي جامعتهم، ويعطي المعذور الفرصة الكافية لتطبيب خاطره؛ مع عدم إسقاط التكليف الواجبة عنه، ليكون بذلك المجتمع المسلم مجتمعاً مترابطاً، خالياً عن كل عضواً أشلّ.

(١) رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين ٩٣

(٢) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام للطاهر ابن عاشور ١٨٦

٦- تنوع أدوات الاستفهام :

ومن الملاحظ في هذه الحوارات النبوية تنوع الأدوات، وعدم الاقتصار على أداة استفهام واحدة، فتارة يكون الاستفهام الحواري بأدوات (الهمزة)، وتارة يكون بغيرها.

أ- الاستفهام بالهمزة:

ومنه ما جاء في حديث وفاته ﷺ؛ عندما استخدم (الهمزة) للحوار المقتضب مع من حضر من أهل بيته ومنهم عائشة رضي الله عنها وعنهن أجمعين، حوار يتقطع بالمرض، حوار يعتريه الإغماء، فلا تكاد تسمح لحظات الإفاقة بأكثر من هذا الاستفهام الموجز المتكون من الهمزة وكلمتين بعدها!

استفهام بهمزة (التصديق) التي تتطلب الإجابة المباشرة السريعة (نعم) ، أو (لا) ، همزة تستدعي طلب تعين الثبوت أو الانتفاء (١)؛ همزة لا تصوّر فيها في هذا السياق، لأن المقام لا يحتمل التطويل لأن الإغماء يهجم على النبي الكريم المثقل بالمرض ﷺ، فلا يمكنه حتى من القيام للصلاة! إغماء متكرر، يعقبه إفاقات مصحوبة بالحوار المبني على الاستفهام " أَصَلَّى النَّاسُ ؟ "

وذلك فيما ثبت عن عبيد الله بن عبد الله قال : دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقُلْتُ لَهَا : أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ مَرَضِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ : بَلَى ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ : " أَصَلَّى النَّاسُ ؟ " ، فَقُلْتُ : لَا وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : " ضَعُوا مَاءً فِي الْمِحْضَبِ " . قَالَتْ : فَفَعَلْنَا فَاعْتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنْوَأَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ : " أَصَلَّى النَّاسُ ؟ " . قُلْنَا : لَا هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ . قَالَ : " ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِحْضَبِ " . فَفَعَلْنَا فَاعْتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنْوَأَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ يَنْتَظِرُونَكَ فَقَالَ : " ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِحْضَبِ " . فَفَعَلْنَا فَاعْتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنْوَأَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ : " أَصَلَّى النَّاسُ " . قُلْنَا : لَا هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالنَّاسُ عُكُوفٌ فِي الْمَسْجِدِ لِصَلَاةِ الْعِشَاءِ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ بِأَنْ تُصَلِّيَ بِالنَّاسِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ رَجُلًا رَقِيقًا يَا عُمَرُ صَلِّ بِالنَّاسِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنْتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ فَصَلَّى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تِلْكَ الْأَيَّامَ ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً فَخَرَجَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا الْعَبَّاسُ لِصَلَاةِ الظُّهْرِ وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُصَلِّي

(١) ينظر مثلا: مفتاح العلوم ٣٠٨

بِالنَّاسِ فَلَمَّا رَأَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَهَبَ لِيَتَأَخَّرَ فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنْ لَا يَتَأَخَّرَ قَالَ: "أَجْلِسَانِي إِلَى جَنْبِهِ". فَأَجْلَسَاهُ إِلَى جَنْبِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُصَلِّي وَهُوَ قَائِمٌ بِصَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ وَالنَّاسُ بِصَلَاةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالنَّبِيُّ ﷺ قَاعِدٌ (١).

"أَصَلَّى النَّاسُ" ؟ هذا هو الاستفهام الذي كان أصل الحوار النبوي في هذا الموقف العصيب، الموقف الخاص، زمانا، ومكانا، ومتعلقات نفسية أخرى.

أما الزمان فيخشى فيه ﷺ من فوات وقت الصلاة الذي قال فيه ربه تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} (٢).

وأما المكان فالمسجد فيه عامروه من الصحابة الكرام رضي الله عنهم كما أخبرت زوجته عائشة رضي الله عنها "هُم يَنْتَظِرُونَكَ"، فليس من المناسب تأخيرهم في الانتظار لا سيما والفضاء الزماني مقتربا بالفضاء الزماني يدلان على آخر الصلوات: "وَالنَّاسُ عُكُوفٌ فِي الْمَسْجِدِ لِصَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ"، العشاء الآخرة التي يقصدها المؤمنون الصادقون، فكان حقهم الإكرام، ويتخلف عنها المنافقون ويستقلونها! "لَيْسَ صَلَاةٌ أَثَقَلَ عَلَى الْمَنَافِقِينَ مِنَ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا" (٣).

وهذا من الجوانب النفسية المراعاة لدى سيد الخلق صلى الله عليه وسلم في احترام الآخرين، ومراعاة نفوسهم، والحفاظ على مصالحهم، إذ لم يشأ أن يطيل في انتظارهم، حتى ولو كان انتظارا للصلاة؛ الانتظار الذي يُعَدُّ صَلَاةً كما ثبت في قوله صلى الله عليه وسلم: "لَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا دَامَتِ الصَّلَاةُ تُحْسِنُهُ، لَا يَمْتَعُهُ أَنْ يَنْقَلِبَ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا الصَّلَاةُ" (٤)، ولذا أمر صلى الله عليه وسلم في نهاية الحديث بأن تقام الصلاة ولو لم يؤمهم إمامهم صلى الله عليه وسلم حين: "أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُصَلِّي بِالنَّاسِ". وكان إرساله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر أن يصلي بالناس نتيجة ما بلغه من الجواب

(١) سنن الدارمي ٢ / ٨٠٠ ، و السنن الكبرى للبيهقي ٨ / ٢٦١

(٢) النساء: ١٠٣

(٣) صحيح البخاري ١ / ١٣٢ ، و صحيح مسلم ١ / ٤٥١

(٤) صحيح البخاري ١ / ١٣٢ ، سنن ابن ماجه ١ / ٢٦٢

بالنفي على استفهامه صلى الله عليه وسلم التصديقي: " أَصَلَّى النَّاسُ؟ " . قُلْنَا : لاَ . وهكذا ترتب على الاستفهام جوابه، فأدى ذلك إلى اتخاذ الموقف المناسب؛ من الإرسال إلى الإمام الخلف أبي بكر رضي الله عنه. إذ المهم أن تقام الصلاة، ولا يُجس المؤمنون الصادقون في انتظارها.

ب- الاستفهام ب (مَنْ):

ويأتي الحوار الاستفهامي بأداة مباشرة للسؤال عن الذات؟ (مَنْ هذا؟ مَنْ هذه؟) إذ ذكر النحاة " أَنَّهَا لَمَنْ يَعْقِلُ خَاصَّةً ... وَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: { يَا وَيْلَتَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا } " (١).

حوار مفتوح بسؤال محدد؛ سؤال ارتسم بالأداة (مَنْ) إذ " إِنَّمَا لَا إِهْمَامَ فِيهَا لِاخْتِصَاصِهَا بِمَنْ يَعْقِلُ " (٢)، ولذلك يكون الجواب فيه أيضًا محددًا بالذات، أو بالصفة المبيّنة الموضحة الكاشفة، جوابًا خاليًا من الإبهام، حوار المطلوب فيه رفع اللبس، وكشف الإبهام.

وهذا ما نقف عليه في الحوارين التاليين أولهما ما جاء عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا رَجُلٌ، فَكَانَتْ تَغَيَّرُ وَجْهَهُ، كَأَنَّهَا كَرِهَتْ ذَلِكَ، قَالَ: يَا عَائِشَةُ! مَنْ هَذَا؟ فَقَالَتْ: إِنَّهُ أَخِي مِنَ الرِّضَاعَةِ. فَقَالَ: انظُرْ مَنْ إِخْوَانُكَ؟ فَإِنَّمَا الرِّضَاعَةُ مِنَ المَجَاعَةِ (٣).

والحوار الآخر ما جاء عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قَالَ: " مَنْ هَذِهِ؟ " قَالَتْ: هَذِهِ فُلَانَةٌ تَذُكِّرُ مِنْ صَلَاتِهَا. قَالَ: " مَهْ، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا " وَكَانَ أَحَبُّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ صَاحِبُهُ عَلَيْهِ (٤).

فالاستفهام في الحوارين السابقين مع اختلاف الحادثتين كان واحدًا في الأداة المستعملة للاستفهام؛ لأن المراد واحد، إذ السؤال عن الذات، لا عن الأسباب، ولا عن الوقت أو المكان، أو نحو ذلك، فاللبس الحاصل من وجود رجل غريب مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أثار الكراهية التي عرفت بها الزوجة

(١) منازل الحروف ٤٠، والآية في يس: ٥٢

(٢) شرح التصريح على التوضيح ١/ ١٦٣

(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٧٠، و صحيح مسلم ٢/ ١٠٧٨، وسنن ابن ماجه ١/ ٦٢٦

(٤) صحيح البخاري ٢/ ٥٤، ومسند أحمد ٤٠/ ١٥١، و صحيح ابن حبان ٦٧/ ٢

اللمّاحة في وجه زوجها المحب ﷺ ، مما جعل الحوار يبدأ بأداة تزيل اللبس، وتعيد الصفو المتعكر إلى الأجواء الزكية في الأسرة النبوية "منّ هذا؟" ساعد في هذه المعاني تقدم النداء المخصّص للمقصود بالاستفهام، المطلوب منه الحوار " يا عائشة! " أي أجيبني " يا عائشة! " فالسؤال موجّه إليك لا إلى أحد غيرك ! حوار كان فيه الاستفهام المبني على (منّ) المباعده للإبهام كلّ البعد، فالأمر المثير للقلق، الباعث للتساؤل، يجب أن يُسأل عنه بأسلوب لا غموض فيه ولا إبهام، ولا احتمالات في الإجابة، لذلك جاء بهذه الصيغة: "يا عائشة! منّ هذا؟" السؤال المحدّد الموجه إلى العين المسؤول عنها لا غير .

ومثل ذلك يمكننا أن نلمسه من الحوار الآخر الذي توجه فيه السؤال الفاتح للحوار إلى امرأة قد يكون ظهر من شكلها هزال، أو نحوه من آثار العبادة المتواصلة، مما حدا الرسول النبيّ الكريم ﷺ أن يستفهم استفهاماً مباشراً : " منّ هذِهِ؟ " ، ولذلك جاء ختام الحوار بتوجيه عام لـ " هذه " ولغيرها : مسبوقة بالزجر " مه، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ ، فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا " ، وجاء في رواية عن عائشة رضي الله عنها ورود الاستفهام الإنكاري في أثناء الحوار ، ذلك أنّ الحوَلَاءَ بِنْتُ تُؤَيَّتِ مَرَّتْ بِهَا ، وعندها رسولُ الله ﷺ فقلتُ : هذه الحوَلَاءُ بِنْتُ تُؤَيَّتِ ، وزعموا أنّها لا تنام اللّيل ، فقال رسولُ الله ﷺ : " لا تنامُ اللّيل ؟ حُذُوا من العمل ما تُطِيقُونَ ، فوالله لا يسأمُ الله حتى تسأمُوا " (١) فالسؤال كذلك ورد محدّداً " منّ هذِهِ؟ " ، لأنّ السؤال المحدّد الخالي من الإبهام يتطلب جوابا عن المعين، وإن تبعه بيان صفات تلك المسؤول عنها ، "وزعموا أنّها لا تنام اللّيل" ، ومن هنا نرى كيف جاءت أداة الاستفهام (منّ) ملاءمتها للغرض الذي سيقت لأجله من الوضوح التام، والتحديد الدقيق، البعيد كل البعد عن الإبهام.

ت- حذف أداة الاستفهام :

وربما ورد الاستفهام في الحوار محذوف الأداة، على وقع جرس صوتي متسارع، مما يدخل في الانسجام بين المتحاورين حتى كأنهما شخص واحد تسقط بينهما التكلفة فتسقط معها بعض الأدوات الافتتاحية ومنها أداة الاستفهام، تركّزاً لبعض الكلام يتناسب والانسجام الزوجي.

ومن ذلك ما جاء في معرض اللهو واللعب ومؤانسة الأهل، وإدخال السرور عليهم، ومراعاة الجارية حديثة السنّ في حاجتها للهو، روت أمنا عائشة رضي الله عنها هذه الحادثة القائمة على الحوار الممتع:

(١) صحيح البخاري ١/ ١٧ ، و صحيح مسلم ١/ ٥٤٢ ، ومسند إسحاق بن راهويه ٢/ ١٣٩

قَالَتْ: كَانَ يَوْمُ عِيدِ يَلْعَبُ السُّودَانُ بِالذَّرْقِ وَالْحِرَابِ ، فَإِنَّمَا سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَإِنَّمَا قَالَ: " تَشْتَهَيْنَ تَنْظِيرِينَ؟ " ، فَقُلْتُ: نَعَمْ ، فَأَقَامَنِي وَرَاءَهُ ، حَدَيْ عَلَى حَدِيهِ ، وَهُوَ يَقُولُ: " دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفَدَةَ " ، حَتَّى إِذَا مَلَكْتُ قَالَ: " حَسْبُكَ؟ " ، قُلْتُ ، نَعَمْ ، قَالَ: " أَذْهَبِي " (١) ، فالألفاظ الاستفهامية جاءت محذوفة الأداة، إذا المقام مقام اندماج وتداخل وانسجام، لا داعي فيه للإطالة في التقييد بإظهار ما يمكن حذفه من الكلام مما يستقيم به اللفظ ويحمل به المعنى، ويخدم حال المشاهدة والأنس بالعروض الترفيهية في يوم العيد، والموقف لا يتطلب الإطالة في الحديث؛ ذلك أن الأفعال أبلغ من الأقوال هنا، فلاختزال اللفظي هو سيد الموقف، وهو متطلب الحال، وهو ما يستدعيه المقام (٢).

ويمكن أن يكون حذف الأداة الاستفهامية في صدر الحوار؛ لدرج الكلام ، والسؤال عن أمر آخر يشغل الجسد البشري، لدخوله ضمن متطلب من متطلبات الإنسان بصفته إنسانا، وهو الحاجة إلى الطعام التي يشترك فيها الأنبياء وغيرهم، فالجميع ليسوا { جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ } (٣) ، لذا ناسب - والله أعلم - مجيء الاستفهام دون أداة في السؤال عن الطعام بعد دخول البيت النبوي مباشرة، وهو ما نراه فيما تحدثنا به أم عطية الأنصارية رضي الله عنها قائلة: دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟ قَالَتْ لَا إِلَّا شَيْءٌ بَعَثَتْ بِهِ أُمُّ عَطِيَّةٍ مِنَ الشَّاةِ الَّتِي بَعَثَتْ إِلَيْهَا مِنَ الصَّدَقَةِ قَالَ ﷺ " إِنَّهَا قَدْ بَلَغَتْ مَحَلَّهَا " (٤).

فالمقام مقام استفهام عن " شَيْءٌ؟ " أي " شَيْءٌ؟! " وما دام المسؤول عنه أي شيء صالح للأكل؟ فقد ناسب الاختزال وعدم الإنقال بذكر الأداة الاستفهامية، والحوار في مجمله يستدعي عدم الإطالة؛ لما أشرت إليه من الحاجة البشرية الطبيعية، ولأن المقام مقام إجمال لا تفصيل، مقام إيجاز لا تطويل، يعضد ذلك أن المستفهم عنه لم يذكر من وصفه أنه شيء مطعوم؟ لأن المقام معلوم؟ فالمطوي معلوم دون الحاجة إلى ذكره؛

(١) صحيح البخاري ١٦ / ٢ ، و صحيح مسلم ٦٠٩ / ٢ ، والسنن الكبرى للبيهقي ١٠ / ٣٦٩

(٢) ينظر حول الاختزال مثلا: شرح كتاب سيبويه ٢٠٨ / ٢

(٣) سورة الأنبياء: ٨

(٤) صحيح البخاري ١١٦ / ٢ ، و مسند أحمد ٤٥ / ٤١٠

"عِنْدَكُمْ شَيْءٌ"، ساند ذلك أن لفظ "شَيْءٌ" نكرة عامة مبهمه، فألفاظ الحوار متعاضدة تخدم كل ما يسهم في الاختزال لا الإطالة.

أ- المعنى الحقيقي للاستفهام :

وبالتأمل في معاني هذه الاستفهامات الواردة في الحوارات النبوية محل الدراسات نجد منها ما جاء على المعنى الحقيقي للاستفهام، ومنها ما خرج إلى معانٍ أخرى؛ من نحو الإنكار، والتقرير، وهي معانٍ يشار إليها في كتب البلاغة (١).

فمما ورد على معناه الحقيقي ما جاء في الحديث المتقدم في السؤال عن صلاة الناس، فيما ثبت عن عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فُكُلْتُ لَهَا : أَلَا تُحَدِّثِينِي عَنْ مَرَضِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ : بَلَى نَقُلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : " أَصَلَّى النَّاسُ؟ " ، فُكُلْتُ : لَا وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : " ضَعُوا مَاءً فِي الْمِحْضَبِ " . قَالَتْ : فَفَعَلْنَا فَأَغْتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيُنَوِّءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ : " أَصَلَّى النَّاسُ؟ " . قُلْنَا : لَا هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ . قَالَ : " ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِحْضَبِ " . فَفَعَلْنَا فَأَغْتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيُنَوِّءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ فَأَفَاقَ فَقَالَ : " أَصَلَّى النَّاسُ؟ " . قُلْتُ : لَا هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ فَقَالَ : " ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِحْضَبِ " . فَفَعَلْنَا فَأَغْتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيُنَوِّءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ : " أَصَلَّى النَّاسُ؟ " . قُلْنَا : لَا هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالنَّاسُ عُكُوفٌ فِي الْمَسْجِدِ لِصَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ قَالَتْ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِأَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ قَالَتْ فَأَتَاهُ الرَّسُولُ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ بِأَنْ تُصَلِّيَ بِالنَّاسِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ رَجُلًا رَقِيقًا يَا عُمَرُ صَلِّ بِالنَّاسِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنْتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ فَصَلَّى أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تِلْكَ الْأَيَّامَ ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً فَخَرَجَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا الْعَبَّاسُ لِصَلَاةِ الظُّهْرِ وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُصَلِّي بِالنَّاسِ فَلَمَّا رَأَاهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذَهَبَ لِيَتَأَخَّرَ فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنْ لَا يَتَأَخَّرَ قَالَ : " أَجْلِسَانِي إِلَى جَنْبِهِ " . فَأَجْلَسَاهُ إِلَى جَنْبِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُصَلِّي وَهُوَ قَائِمٌ بِصَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ وَالنَّاسُ بِصَلَاةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَالنَّبِيُّ ﷺ قَاعِدٌ (٢).

(١) ينظر مثلاً: الإيضاح في علوم البلاغة ٣ / ٦٨

(٢) سنن الدارمي ٢ / ٨٠٠ ، و السنن الكبرى للبيهقي ٨ / ٢٦١

ذلك أن الاستفهامات واردة فيه على حقيقتها فالمستفهمُ إمام في حالة نفسية خاصة، حالة مرضه ﷺ
المرض الذي توفي فيه، وردت الاستفهامات استفهامات حقيقية، يطمئن ﷺ من خلالها على أصحابه
الكرام رضي الله عنهم في قيامهم بالشعيرة العظمى (الصلاة) عمود الدين، لذا جاء الاستفهام حقيقيا
مباشراً عن ركنين مهمين يجمعان ثنائية الصلاة والناس المصلين " أَصَلَّى النَّاسُ " ؟ صلى الله وسلم وبارك
على النبي الكريم الرؤوف الرحيم.

وأىُّ مقامٍ أدعى للمعاني الحقيقة من مثل هذا المقام، مقام إدبار الدنيا وإقبال الآخرة، مقام القدوم
على دار الحق ، فهو بالمعنى الحقيقي أولى.

مقام يستدع استفهاما حقيقيا عن أمر جليل ، أمر الصلاة الذي كان الهاجس المصاحب للنبي صلى
الله عليه وسلم طوال حياته الدعوية، كانت الصلاة حاضرة معه يعيشها صلى الله عليه وسلم مع أصحابه
رضي الله عنهم طوال حياته، عاشها في المجتمع المدني عندما بدأ ببناء المسجد مقدمه المدينة، ففي الحديث
... ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاحِلَتَهُ فَسَارَ وَمَشَى النَّاسُ حَتَّى بَرَكَتْ بِهِ عِنْدَ مَسْجِدِ الرَّسُولِ
صلى الله عليه وسلم بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ يُصَلِّي فِيهِ يَوْمَئِذٍ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ مَرِيدًا لِلتَّمْرِ لِسَهْلٍ وَسُهَيْلٍ
عُلَامِينَ يَتِيمِينَ أَحْوِينَ فِي حِجْرِ أَبِي أُمَامَةَ أَسْعَدِ بْنِ زُرَّارَةَ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ: «هَذَا الْمَنْزِلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعُلَامِينَ
فَسَاوَمَهُمَا بِالْمَرِيدِ لِيَتَّخِذَهُ مَسْجِدًا فَقَالَا: بَلْ نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَبَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقْبَلَهُ
هَبَةً حَتَّى ابْتَاعَهُ مِنْهُمَا وَبَنَاهُ مَسْجِدًا، وَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْقُلُ مَعَهُمُ اللَّبَنَ فِي ثِيَابِهِ وَهُوَ
يَقُولُ: «هَذَا الْحِمَالُ لَا حِمَالُ خَيْرَ هَذَا أَبْرُ رَبَّنَا وَأَطْهَرُ» وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنَّ الْأَجْرَ أَجْرُ الْآخِرَةِ فَارْحَمِ
الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ» يَتَمَثَّلُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَعْرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُسَمَّ لِي، وَلَمْ يَبْلُغْنِي
فِي الْأَحَادِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَمَثَّلُ بِبَيْتٍ قَطُّ مِنْ شَعْرِ نَامٍ غَيْرِ هَؤُلَاءِ الْأَبْيَاتِ، وَلَكِنْ
كَانَ يُرْجَاهُمْ لِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ (١).

(١) مصنف عبد الرزاق الصنعاني ٥ / ٣٩٦

وقد استمر اهتمامه صلى الله عليه وسلم بشأن الصلاة طوال حياته، حتى بلغ هذا الاهتمام مبلغه أن يجتم صلى الله عليه وسلم حياته بالتأكيد على الصلاة، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ: كَانَ آخِرُ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ، اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ " (١).

ولعلّ ختمه صلى الله عليه وسلم حياته بالوصية بالصلاة عاضد استفهامه الحقيقي الوارد هنا في السؤال عن أصحابه الكرام رضي الله عنهم في إقامتهم الصلاة: " أَصَلَّى النَّاسُ؟"

ومن الحوارات المشتملة على الاستفهام الحقيقي ما جاء في السؤال عن وجود الطعام في البيت النبوي، عَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ قَالَتْ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ "عِنْدَكُمْ شَيْءٌ" قَالَتْ لَا إِلَّا شَيْءٌ بَعَثَتْ بِهِ أُمُّ عَطِيَّةَ مِنَ الشَّاةِ الَّتِي بَعَثَتْ إِلَيْهَا مِنَ الصَّدَقَةِ قَالَ ﷺ "إِنَّهَا قَدْ بَلَغَتْ مَحَلَّهَا" (٢).

فالذي يظهر والله أعلم أن الاستفهام الوارد في الحوار هنا جاء على معناه الحقيقي "عندكم شيء؟" استفهام حقيقي نابع من النفس البشرية، ذلك أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لم يتجاوز كونه {بَشَرًا رَسُولًا} (٣)، يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق، وهو صلى الله عليه وسلم الذي اختار أن يجوع ويشبع على أن يكون ملكا رسولا ﷺ؛ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا ، فَقُلْتُ: لَا يَا رَبِّ ، وَلَكِنْ أَجُوعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا ، فَإِذَا شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ ، وَإِذَا جُوعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَدَعَوْتُكَ" (٤)، ومن هنا ناسب أن يُحمل الاستفهام في هذا الحوار على المعنى الحقيقي له "عندكم شيء؟"

ب- خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي :

(١) مسند أحمد ٢ / ٢٤

(٢) صحيح البخاري ٩ / ٢٧ ، و صحيح مسلم ٢ / ٧٥٤ ، المعجم الكبير للطبراني ٢٤ / ٢٩

(٣) الإسراء: ٩٣

(٤) شعب الإيمان ١٣ / ٤٣

من المعلوم أن الاستفهام يخرج عن معناه الحقيقي إلى معانٍ مجازية أخرى تُفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال (١) ، ومن هذه المعاني التي خرج إليها الاستفهام في الأحاديث الداخلة في حدود هذا البحث ما يلي:

(١) الاستفهام الإنكاري :

و منه ما نراه جلياً في الحوار الوارد في إنكاره ﷺ على المرأة التي تقوم الليل كله دون نوم، الإنكار المتوجه إلى الحولاء بنتِ ثُوَيْتِ الوارد في رواية عائشة رضي الله عنها، حين مرّت بها الحولاء، وعندها رسولُ الله ﷺ فقالت عائشة رضي الله عنها: هذه الحولاءُ بنتُ ثُوَيْتِ ، وزعموا أنها لا تنام الليلَ ، فقال رسولُ الله ﷺ : "لا تنامُ الليل ؟ حُذُوا من العمل ما تُطيقون ، فوالله لا يسأمُ الله حتى تسأموا " (٢).

إنكار مكسوٍّ برحمة، رحمة بالإنسان أن يتحمل فوق طاقته، رحمة به أن يملّ فيترك العمل الصالح قليله وكثيره.

إنكار بلغ أعلى درجات الشجاعة ومراعاة المشاعر، وهما أمران إذا اجتمعا أفادا بيان الحق دون التجريح بالآخرين، لم يجامل صلى الله عليه وسلم مجاملة تمنع من بيان الحق وحاشاه ذلك، ولم يعنّف صلى الله عليه وسلم تعنيفاً قد ينقّر عن قبول الحق، وإنما كان صلى الله عليه وسلم حتى مع استفهامه الإنكاري لينا برحمة الله كما قال الله تعالى عنه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (٣).

ومن الاستفهام الإنكاري في معرض الحوار ما يطالعنا في إنكار النبي ﷺ على زوجته عائشة رضي الله عنها في منعها الإذن لعمّها من الرضاعة؛ ظناً منها أنه لا يحلّ لها، قالت رضي الله عنها استأذَنَ عَلِيَّ أَفْلَحُ أَخُو أَبِي الْقُعَيْسِ بَعْدَمَا أَنْزَلَ الْحِجَابُ فَقُلْتُ لَا آذُنُ لَهُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ فَإِنَّ أَحَاهُ أَبَا الْقُعَيْسِ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي وَلَكِنْ أَرْضَعَتْنِي امْرَأَةٌ أَبِي الْقُعَيْسِ فَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَفْلَحَ أَخَا

(١) ينظر مثلاً : الإيضاح في علوم البلاغة ٣ / ٧٦ ، و علوم البلاغة البيان، المعاني، البدع ص: ٢٨٩ ، والمنهاج الواضح للبلاغة ٣ / ٣١٧

(٢) ينظر مثلاً : الإيضاح في علوم البلاغة ٣ / ٧٦ ، و علوم البلاغة البيان، المعاني، البدع ص: ٢٨٩ ، والمنهاج الواضح للبلاغة ٣ / ٣١٧

(٣) آل عمران: ١٥٩

أَبِي الْفُعَيْسِ اسْتَأْذَنَ فَأَبَيْتُ أَنْ آذَنَ لَهُ حَتَّى اسْتَأْذَنَكَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " وَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْذِنِي؟! عَمُّكَ " قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي وَلَكِنْ أَرْضَعَنِي امْرَأَةٌ أَبِي الْفُعَيْسِ فَقَالَ : " ائْذِنِي لَهُ فَإِنَّهُ عَمُّكَ تَرَبَّتْ يَمِينُكَ " قَالَ عُرْوَةُ فَلِذَلِكَ كَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ حَرِّمُوا مِنَ الرِّضَاعَةِ مَا تُحَرِّمُونَ مِنَ النَّسَبِ " (١).

فالإِنْكَارُ وَاضِحٌ بَيِّنٌ فِي مَفْرَدَاتِ هَذَا الْحَوَارِ، وَمِنْهَا الِاسْتِفْهَامُ " وَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْذِنِي؟! عَمُّكَ " .

اسْتِفْهَامٌ يَحْمِلُ فِي طَيَاتِهِ مَعْنَى الْأَخْذِ بِالْحَلَالِ الْمُبَاحِ، وَعَدَمُ تَجَنُّبِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي عِلَاقَاتِ النَّاسِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، حَتَّى لَوْ كَانَ هَذَا التَّجَنُّبُ مَبْنِيًّا عَلَى اجْتِهَادٍ عَقْلِيٍّ فِي حَسَنِ نِيَّةٍ وَأَخْذٍ بِالْحَزْمِ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ مَقْدَمٌ عَلَى اجْتِهَادِ الْعَقْلِيِّ؛ مَعَ أَنَّ النِّقْلَ الصَّرِيحَ لَا يَتَعَارَضُ وَالْعَقْلَ الصَّحِيحَ .

إِنْكَارٌ فِي أَلْفَاظِ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ هُنَا تَوَجَّهَ إِلَى تَصْحِيحِ مَفْهُومٍ عَالِقٍ فِي ذَهْنِ أَمْنَا عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَلِذَا نَاسَبَ أَنْ يَأْتِيَ التَّوْضِيحُ فِي أَسْلُوبِ اسْتِفْهَامِ إِنْكَارِيٍّ، لِزَيْحِ اللَّبْسِ فِي الْمَسْأَلَةِ الَّتِي جَرَى حَوْلَهَا الْحَوَارِ .

وَمِنْ مِثْلِ هَذَا الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ نَقَفَ عَلَى مَا يُمْكِنُ تَقْرِيرُهُ مِنْ مَعْلُومَاتٍ تَبَيَّنَ لِلْمَتَعَلِّمِ أَنَّ مَعْلُومَاتِهِ خَاطِئَةٌ، وَأَنَّهَا بِحَاجَةٍ إِلَى تَصْحِيحِ (٢) .

وَمِنْ هَذَا الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ تَتَضَعُ النُّتِيْجَةُ الْكُبْرَى مِنْهُ، لِتَحْقِيقِ إِحْدَى مَحَاسِنِ دِينِنَا الْكُبْرَى، صَلَةِ الْأَرْحَامِ، وَالتَّزَاوُرِ بَيْنِ الْأَقْرَابِ، لِلْبَعْدِ كُلِّ الْبَعْدِ عَنِ الْقَطِيعَةِ وَأَسْبَابِهَا، انْطِلَاقًا مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُوسِّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحْمَتَهُ " (٣) .

وَمِنْ الْمَلَاظِ فِي اللَّفْظِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ أَنَّ الْإِنْكَارَ تَوَجَّهَ إِلَى عَدَمِ الْإِذْنِ، مَعَ الْإِحْتِفَازِ بِأَدَبِ الْاسْتِئْذَانِ، فَإِذَا اسْتَأْذَنَ فَلْتَأْذِنِي لَهُ يَا عَائِشَةُ، لَا أَنْ يَدْخُلَ الْعَمَّ دُونَ اسْتِئْذَانِ، لِأَنَّ لَفْظَ الْأَمْرِ الْوَارِدَ بَعْدَ الْاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ جَاءَ بِلَفْظِ الْإِذْنِ: " ائْذِنِي لَهُ " . وَذَلِكَ عَمَلًا بِأَدَبِ الْاسْتِئْذَانِ الْعَامِ الْوَارِدِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ

(١) صحيح البخاري ١٢٠ / ٦ ، و صحيح مسلم ١٠٦٩ / ٢ ، و مصنف عبد الرزاق الصنعاني ٤٧٢ / ٧

(٢) للفائدة ينظر: من أساليب التربية الإسلامية التربية بالحوار ١٦

(٣) مسند أحمد ٢١ / ٢٠٩

تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ تَأْذِنُكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } (١)؛ وقوله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّمَا جُعِلَ الْإِسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ النَّظَرِ" (٢)؛ فالإنكار في الحديث متوجّه إلى عدم اعتقاد عمومة (أفلح) دون أن يمتدّ إلى الإذن له دون سابق استئذان.

٢) الاستفهام التقريري :

ومن الحوارات ما جاء الاستفهام فيها تقريريا إخباريا، حيث يحمل الاستفهام في مضمونه معنى الإخبار، وهو الاستفهام الذي "يرمي إلى حمل المخاطب على الإقرار بما يسأل عنه" (٣). وهو ما ثبت عن عائشة - رضی اللہ عنہا - أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَفُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ عَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟! قَالَ: "أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟" (٤).

فالرسول ﷺ يذكر في صورة الاستفهام التقريري حبه للعبودية والشكر، إخبار وتقرير وردا على صورة الاستفهام، تقوية للمعنى، وترسيخا للمراد، على حدّ قوله تعالى: { أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِأَهْلِيْنَا يَا إِبْرَاهِيمُ } (٥).

ومن الممكن أن أجد في تعبير النبي صلى الله عليه وسلم بالاستفهام التقريري عدولا عن الخبر الصريح بكونه: "عَبْدًا شَكُورًا"؛ للبعد عن تزكية النفس؛ إذ تَمَّتْ فرق بين التعبير النبوي الاستفهامي الإنشائي: "أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا؟"، وبين ما عدل عنه من الخبر الصريح من نحو: إني عبد شكور، إني أحب أن أكون عبدا شكورا! إذا فالتعبير الإنشائي هنا هو المنسجم مع هديه صلى الله عليه وسلم في

(١) النور: ٥٨

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٥ / ٢٩٤

(٣) علوم البلاغة البدع والبيان والمعاني ٢٩٧

(٤) صحيح البخاري ٦ / ١٣٥، و صحيح مسلم ٤ / ٢١٧٢

(٥) ينظر: مفتاح العلوم ٣١٥، والجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ١١٤، والآية في سورة الأنبياء: ٦٢

التواضع، ونهيه صلى الله عليه وسلم عن إطرء غيره إياه بَلَّةَ إطرء نفسه صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك ما جاء عن عُمَرَ رضي الله عنه، حين قال عَلَى الْمُنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "لَا تُطْرُوْنِي، كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ" (١).

وهذا الحوار داخل في عنصر تربوي مهم؛ إذ يمكن إدراجه ضمن الأسئلة التي من شأنها أن تثير لدى المتعلم الفرصة ليعطي رأيه حول الموضوع القائم بينهما (٢).

وبعد فما التنوع في سياقات الاستفهام الواردة في الحوارات النبوية إلا سمة واضحة الدلالة على النسق التعبيري باختلاف المقام، ومراعاة حال المخاطب، وإلى مثل هذا أشار حازم القرطاجني حين قال: " وإذ قد تبين أن الكلام يهياً للقبول من جهة ما يرجع إليه وما يرجع إلى القائل وما يرجع إلى المقول فيه والمقول له فواجب أن يعلم أن للكلام في كل مأخذ من تلك المآخذ التي بها تعتر النفوس لقبوله هيئات من جهة ما يلحقه من العبارات وما يتكرر فيه من المسموعات الدالة على مأخذ من ذلك" (٣).

٨- التقنيات والعلاقات السردية:

بالنظر إلى ما تقدم من الأحاديث قيد الدراسة، يمكننا الوقوف على بعض أنماط الحوار مستصحبين تقنيات السرد، وعلاقاته، ومن ذلك:

أ- حوار تيار الوعي:

في التأمل بمثل حديث الحولاء بنتِ ثُوَيْتٍ الوارد في رواية عائشة رضي الله عنها، التي مرّت بها ، وعندها رسول الله ﷺ فقلتُ: هذه الحولاءُ بنتُ ثُوَيْتٍ ، وزعموا أنها لا تنام الليل ، فقال رسولُ الله ﷺ : "لا تنامُ الليل ؟ حُدُوا من العمل ما تُطيقون ، فوالله لا يسأمُ اللهُ حتى تسأمُوا" (٤). نلاحظ أن هذا النوع من الحوار يستمد طاقته التعبيرية من قدرة أمنا عائشة رضي الله عنها على تسجيل الجو الباطني للشخصية

(١) صحيح البخاري ٤ / ١٦٧

(٢) للفائدة ينظر: من أساليب التربية الإسلامية التربية بالحوار ١٦

(٣) منهج البلغاء وسراج الأدباء ٣٤٦

(٤) صحيح البخاري ١ / ١٧ ، و صحيح مسلم ١ / ٥٤٢ ، ومسند إسحاق بن راهويه ٢ / ١٣٩

المتحدث عنها، حتى استطاعت رضي الله عنها استبطان الذات المحكي عنها، ورصد ومضات الوعي وتدقيقاته إزاء موقف من مواقف الحياة، استدعاء وتصورا وتركيبا.

ذلك أن تيار الوعي يجرف الخواطر قبل نقله الصور، فالحولاء رضي الله عنها قد امتلأ خاطرها بحب طاعة الله تعالى حبا وُلد عندها حالة من التجاوز، وعدم التوازن في القيام بهذه العبادة؛ حتى بلغت بها الحال إلى كونها (لا تنام الليل) (١)!

ب- المونولوج:

الذي يعني: "عملية التعبير عن تداعي الأفكار... بتدرج منطقي... هو سلسلة من الذكريات" (٢)، وهو الذي يبدو لي وجوده بتأمل ما أخبرتنا به أمنا عائشة رضي الله عنها حين قالت استأذن عليّ أفلح أحو أبي الفعيس بعدما أنزل الحجاب فقلت لا آذن له حتى استأذن فيه النبي صلى الله عليه وسلم فإن أحاه أبا الفعيس ليس هو أرضعني ولكن أرضعني امرأة أبي الفعيس فدخل عليّ النبي ﷺ فقلت له يا رسول الله إن أفلح أحو أبي الفعيس استأذن فأبيت أن آذن له حتى استأذنتك فقال النبي ﷺ: "وما منعك أن تأذني؟! عمك" قلت يا رسول الله إن الرجل ليس هو أرضعني ولكن أرضعني امرأة أبي الفعيس فقال ائذني له فإنه عمك تربت يمينك قال عروة فلذلك كانت عائشة تقول حرّموا من الرضاعة ما تُحرّمون من النسب (٣).

فقولها رضي الله عنها وأرضاها: (فقلت لا آذن له حتى استأذن فيه النبي ﷺ فإن أحاه أبا الفعيس ليس هو أرضعني ولكن أرضعني امرأة أبي الفعيس) يمثل استدعاء الذكريات في حادثة الرضاعة التي مرّ عليها عدد من السنين، وبناء على هذه الذكريات تسلسل المنطق لديها رضي الله عنها بهذه النتيجة (لا آذن له) بناء على المقدمة الراسخة في قناعتها رضي الله عنها (إن أحاه أبا الفعيس ليس هو أرضعني ولكن أرضعني امرأة أبي الفعيس)!

(١) ينظر: الحوار القصصي تقنياته وعلاقاته السردية ١١٣

(٢) القصة السيكولوجية، ١٢٤

(٣) صحيح البخاري ١٢٠/٦، و صحيح مسلم ١٠٦٩/٢، و مصنف عبد الرزاق الصنعاني ٤٧٢/٧

لقد سردت لنا أمنا عائشة رضي الله عنها هذا الحديث النفسي بجرارة التجربة، وانفعالاتها في صورة اعتمدت على الصراع النفسي الداخلي مع الذات (لَا آذَنُ لَهُ حَتَّىٰ اسْتَأْذَنَ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، وهو إلى هذه اللحظة يمثل حوارا صامتا فرديا داخل ذات أمنا عائشة رضي الله عنها ، منها وإليها(١).

إلى أن يتحول إلى خطاب علي موجه إلى الآخر ، حيث انتقل إلى حوار مع رسول الله ﷺ فَدَخَلَ عَلِيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقُلْتُ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَفْلَحَ أَحَا أَبِي الْقُعَيْسِ اسْتَأْذَنَ فَأَبَيْتُ أَنْ آذَنَ لَهُ حَتَّىٰ اسْتَأْذَنَكَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " وَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَأْذِنِي؟! عَمُّكَ " قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيْسَ هُوَ أَرْضَعَنِي وَلَكِنْ أَرْضَعْتَنِي امْرَأَةٌ أَبِي الْقُعَيْسِ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " ائْذِنِي لَهُ فَإِنَّهُ عَمُّكَ تَرَبَّتْ يَمِينُكَ " (٢).

الخاتمة

هذا، وإني أحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، أحمد الله الذي يسر لي الإدلاء بالتشرف بالعيش في ظلال السيرة النبوية العطرة، من خلال منفذ من أهم منافذها وهو الحوار في البيت النبوي، بين محمد ﷺ وأحب النساء إليه أمنا عائشة رضي الله عنها، الحمد لله أن من الله تعالى عليّ بكتابة ورقات في خدمة السنة العطرة، إسهاماً في النهوض في المهارة البالغة الأهمية، مهارة الحوار، الحوار هنا على أصوله؛ لانطلاقه من مشكاة النبوة.

متوقفا عند هذا النمط المهم من أنماط الخطاب؛ وهو الاستفهام، مجلياً وروده في أنماطه المتعددة من خلال الوقوف على استفهامات النبي صلى الله عليه وسلم الواردة في حواراته الشريفة مع أمنا الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما، ذاكرا التنوع في الاستفهام؛ من حيث صور وروده، ودلالاته، وإيجاءاته، على ما مرّ في البحث في مواضعه.

مشيرا قبل مغادرة خاتمة بحثي هذا إلى بعض نتائج هذا البحث، فمنها:

- ١- تنوع النمط الخطابي حسب المحاور، من ملائكة، أو بشر، ومن مؤمنين، أو مشركين، أو أهل كتاب.
- ٢- كان لظاهرة الإيجاز حضور بارز في حوارات النبي صلى الله عليه وسلم مع أمنا عائشة رضي الله عنها .
- ٣- الوقوف على أصل مهم في الحوار النبوي، هو التثبت مع المحاور.

(١) ينظر: الحوار القصصي تقنياته وعلاقاته السردية ١٢١

(٢) ينظر: السابق ١٢٣

- ٤- من مجموع الحوارات النبوية مع اختلاف أنماطها ما يدل على أصل من أصول الحوار النبوي الرائدة، وهو سلامة المقصد.
- ٥- اختلف ورود الاستفهام في الحوارات النبوية؛ فتارة يجيء مفرداً، وتارة يتكرر.
- ٦- اشتمال بعض الحوارات النبوية على استفهامين متتابعين؛ لغرض بلاغي يُبَيِّن في موضعه من هذا البحث.
- ٧- أثر مادة المفردة في تلطيف الأسلوب الاستفهامي؛ من استفهام النبي ﷺ بمادة (ن ف س)، وترك ما شابهها من نحو (ح ي ض).
- ٨- تنوع الأداة المستفهم بها من نحو: الهمزة، و (من).
- ٩- مما يستلزمه المقام ترك أداة الاستفهام، على ما جاء الحديث عنه في موضعه من هذا البحث.
- ١٠- كما ورد الاستفهام في الحوارات النبوية على معناه الحقيقي، فقد خرج إلى معنوي الإنكار، والتقريب.

راجياً أن يكون هذا البحث لبنة في بناء جيل شامخ، يتعايش مع سنة إمامه محمد ﷺ، وأرجو أن يكون قد أتى بما يسهم في ثراء العملية التربوية التربوية بالسنة المطهرة.

وآخر دعواني أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على خير المرين وإمام المعلمين، على من كان خلقه القرآن، على من أدبه ربّه فأحسن تأديبه؛ محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثبت المصادر والمراجع

- (١) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البستي، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
- (٢) الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩
- (٣) الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت
- (٤) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسرُو جردِي الخراساني، أبو بكر البيهقي، تحقيق أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١

- (٥) إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م
- (٦) الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر دار الجيل - بيروت، الطبعة الثالثة
- (٧) البديع في البديع، أبو العباس، عبد الله بن محمد المعتز بالله ابن المتوكل ابن المعتصم ابن الرشيد العباسي، دار الجيل، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م
- (٨) البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناي بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ
- (٩) تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي، دار الكتاب العربي، د.ط
- (١٠) تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م
- (١١) تفسير القرآن الكريم (ابن القيم) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، دار ومكتبة الهلال - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٠هـ
- (١٢) جامع الأصول في أحاديث الرسول، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م
- (١٣) الجامع الكبير - سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، سنة النشر ١٩٩٨م
- (١٤) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، الجزري، أبو الفتح، ضياء الدين، المعروف بابن الأثير الكاتب، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي، ١٣٧٥هـ
- (١٥) الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، محمد بن فتوح الحميدي، دار ابن حزم، لبنان - بيروت - ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، الطبعة الثانية، تحقيق د. علي حسين البواب.
- (١٦) جمهرة أشعار العرب، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، حققه وضبطه وزاد في شرحه علي محمد البجادي، نخصة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

- (١٧) حد الخطاب بين النسقية والوظيفية، نبيل موميد، مجلة فكر ونقد، مجلة فكرية ثقافية، العدد ٨٩، ٩٠، المغرب، ٢٠٠٧م
- (١٨) الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة، يحيى بن محمد حسن بن أحمد زمزمي، دار التربية والتراث، رمادي للنشر، ١٤١٤ - ١٩٩٤
- (١٩) الحوار القصصي تقنياته وعلاقاته السردية، فاتح عبد السلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م
- (٢٠) الحوار في الإسلام (آدابه وقواعده)، أ.د. أسعد السحمراني، دار النفائس، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م
- (٢١) الحوار في السنة وأثره في تكوين المجتمع، د. تيسير محجوب الفتياي، مركز الكتاب الأكاديمي.
- (٢٢) الحوار في السيرة النبوية، د. محمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع، السعودية، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م
- (٢٣) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق
- (٢٤) الدليل العملي للحوار البناء (٤٠ مهارة وأدبًا)، د. أحمد بن عثمان المزيد، مدار الوطن للنشر، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م
- (٢٥) رسالة منازل الحروف، علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي، تحقيق إبراهيم السامرائي، دار الفكر - عمان
- (٢٦) رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين، دراسة بلاغية تحليلية، د. يوسف بن عبد الله بن محمد العليوي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م
- (٢٧) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م
- (٢٨) رياض الصالحين، تحقيق د. ماهر ياسين الفحل، رئيس قسم الحديث - كلية العلوم الإسلامية - جامعة الأنبار.
- (٢٩) السجل العلمي لندوة الدراسات البلاغية: الواقع والمأمول، ٢١-٢٢ / ٦ / ١٤٣٢هـ، قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مطابع جامعة الإمام، الرياض - السعودية

- (٣٠) السنة، أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخَلَّال البغدادي الحنبلي، تحقيق د. عطية الزهراني، الناشر دار الراية - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م
- (٣١) سنن ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد - محمد كامل قره بللي - عبد اللطيف حرز الله، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م
- (٣٢) سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني، تحقيق شعيب الأرناؤوط - محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م
- (٣٣) السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م
- (٣٤) السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُوْجَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م
- (٣٥) شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو، خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاوي الأزهرى، زين الدين المصري، وكان يعرف بالوقاد، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م
- (٣٦) شرح السنة، الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد زهير الشاويش المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت. ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، الطبعة الثانية.
- (٣٧) شرح كتاب سيبويه، أبو سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان، تحقيق أحمد حسن مهدي، علي سيد علي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م
- (٣٨) شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرُوْجَرْدِي الخراساني، أبو بكر البيهقي، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخرجه أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي - الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م
- (٣٩) صحيح ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري، تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت

- (٤٠) صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط١، ١٤٢٢هـ.
- (٤١) صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة، علوي بن عبد القادر السَّقَّاف، الدرر السنينة - دار الهجرة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م
- (٤٢) طريق المهجرتين وباب السعادتين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار السلفية، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٤ هـ
- (٤٣) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار ابن كثير، دمشق، بيروت/مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩ م
- (٤٤) علل النحو، محمد بن عبد الله بن العباس، أبو الحسن، ابن الوراق، تحقيق محمود جاسم محمد الدرويش، مكتبة الرشد، الرياض - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م
- (٤٥) علوم البلاغة " البديع والبيان والمعاني "، الدكتور محمد أحمد قاسم، الدكتور محيي الدين ديب، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣ م
- (٤٦) غريب الحديث، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي، تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرابوي، خرج أحاديثه عبد القيوم عبد رب النبي، دار الفكر - دمشق، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م
- (٤٧) الفائق في غريب الحديث والأثر، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة - لبنان، الطبعة الثانية.
- (٤٨) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز
- (٤٩) في أصول الحوار، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وحدة الدراسات والبحوث، الطبعة الرابعة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م
- (٥٠) القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م
- (٥١) القصة السيكيولوجية، ليون أيدل، ترجمة محمود السمرة، المكتبة الأهلية، لبنان - بيروت،

- (٥٢) الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م
- (٥٣) الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواسي العبسي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩
- (٥٤) الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
- (٥٥) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤٠٧ هـ
- (٥٦) لسان العرب، ابن منظور، تحقيق عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، و هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة.
- (٥٧) مُختَصَر صَحيحِ الإمامِ البُخاري، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.
- (٥٨) المسند، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصللي، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ - ١٩٨٤
- (٥٩) المسند أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم الحنظلي المروزي المعروف بابن راهويه، تحقيق د. عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي، مكتبة الإيمان - المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٢ - ١٩٩١
- (٦٠) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م
- (٦١) مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن سعد، وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة الأولى
- (٦٢) مسند الحميدي، أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله القرشي الأسدي الحميدي المكي، حقق نصوصه وخرج أحاديثه: حسن سليم أسد الدارلاني، دار السقا، دمشق - سوريا، الطبعة الأولى، ١٩٩٦ م

- (٦٣) مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بھرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠ م
- (٦٤) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت
- (٦٥) المسند، الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، صححت هذه النسخة على النسخة المطبوعة في مطبعة بولاق الأميرية والنسخة المطبوعة في بلاد الهند، ١٤٠٠ هـ
- (٦٦) المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي - الهند، يطلب من: المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣
- (٦٧) معجم السرديات، محمد القاضي، ومحمد الخبو، وأحمد السماوي، ومحمد نجيب العمامي، وعلي عبيد، ونور الدين بنخود، وفتحي النصري، ومحمد آيت ميهوب، إشراف محمد القاض، دار محمد علي للنشر، تونس، الطبعة الأولى، ٢٠١٠ م
- (٦٨) المعجم الكبير للطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، تحقيق فريق من الباحثين بإشراف وعناية: د/ سعد بن عبد الله الحميد و د/ خالد بن عبد الرحمن الجريسي، الطبعة الأولى: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦ م،
- (٦٩) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى، وأحمد الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد النجار، دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية.
- (٧٠) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- (٧١) مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م
- (٧٢) من أساليب التربية الإسلامية التريبة بالحوار، عبد الرحمن النحلوي، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - آب أغسطس ٢٠٠٠ م
- (٧٣) منهج البلغاء وسراج الأدباء، حازم بن محمد بن محمد بن حسن، ابن حازم القرطاجني، تحقيق محمد ابن الخوجة، تونس، ١٩٦٦ م

- (٧٤) المنهاج الواضح للبلاغة، حامد عوني، المكتبة الأزهرية للتراث، د.ط، د.ت
- (٧٥) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢
- (٧٦) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، الطبعة الأولى - ١٩٩٦م.
- (٧٧) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، الطبعة الأولى - ١٩٩٦م.
- (٧٨) موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، تحقيق بشار عواد معروف - محمود خليل، مؤسسة الرسالة، ١٤١٢ هـ